مشاهدات نيبور

في رحلته من البصرة الى الحلة سنة ١٧٦٥ م.

ترجمه عن الألمانية

سعاد هادي العمري

خريج KONSULARAKADEMIE في فينا

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

١٥٠ فلساً

مطبعة دار المعرفة - بغداد

مشاهدات نيبور

في رحلة

من البصرة الى الحلة

سنة ١٧٦٥ م

ترجمه عن الألمانية

سعاد هادي العمري

خريج KONSULARAKADEMIE في فينا

١٣٧٥ هـ - ١٩٥٥ م

مطبعة دار المعرفة ـ بغداد

١٥٠ فلساً

مقدمة المترجم

سبق لي ان قمت بترجمة القسم المتعلق ببغداد من رحلة (نيبور) ، كما سبق للاستاذ الفاضل الدكتور محمود الأمين أن قام بترجمة قسم الرحلة الذي يمتد من بغداد الى الموصل ، إلا ان القسم الأول من رحلة نيبور الممتد بين البصرة والحلة والذى يبحث فيه عن البصرة والملوم والنجف وكربلاء والحلة ، لم يسبق أن ترجم الى العربية .

لذا ، واستكمالا لبحوث نيبور عن العراق ، فقد قمت بترجمة هذا القسم ايضاً ، والذي يسرني تقديمه للقراء المحترمين .

لقد قمت بترجمة هذا القسم ترجمة حرفية ، دون أي تصرف ما . ولكنني رأيت من الأنسب أن أحذف منه المواضع التي لا تتعلق بالعراق مباشرة ، أذكر منها مثلا المعلومات التي تبحثه عن نادرشاه والتي استقاها نيبور من كتب ومصادر شرقية معروفة عند الجميع ، هذا إضافة الى بعض المواضع التي يبحث فيها نيبور عن المعتقدات والمذاهب الاسلامية ، والتي يتعرض نيبور فيها الى الخطأ فى كثير من الأحايين إلا أن هذه المواضع المحذوفة لا تتجاوز جميعاً بضعة صفحات فحسب .

وأود أن اذكر في هذا المجال أيضاً ، أن نيبور وأن كان مشاهداً دقيقاً ومصدراً يوثق به بالنسبة للسياح المماثلين ، فانه كان تحت تأثير التربية الدينية التي كانت تسود في هذا القرن سائر مثقفي أوربا . لذا فيجب أن لا نعجب

لبعض انتقاداته المحشورة بين السطور للعـــالم الشرقي وللدين والمذاهب الأسلامية .

وسأكرر هنا ايضاً ترجمة حال نيبور ، التي نشرتها في كتابي السابق « رحلة نيبور الى بغداد » لفائدة القراء المحترمين ، الذين لم يقرأوا الكتاب المذكور :ـ

كارستن نيبور (*KARSTEN NIEBUHR*) ، الماني الأصل ، ولد في مدينة (*LUDINGWORTH*) من ولاية *HADELN* في ١٧ اذار ١٧٣٣ وكان ابوه فلاحاً من سيلزيا درس كارستن الرياضيات في جامعة *GOTTINGEN* في المانيا .

وحين قرر فردريخ الخامس ، ملك الدنمارك ، ايفاد بعثة فنية للبحوث العلميه في الشرق الادنى وجنوبي جزيرة العرب بصفة خاصة ، دخل نيبور ايضاً في خدمة الملك والتحق بهيئة البعثة . وقد وزعت اعمال البعثة بحيث القيت على عاتق نيبور تبعة الابحاث الجغرافية ، بينما كان على بقية العلماء الأربعة الأسكندنافيين ان يعملوا في تدقيق اللغات والعلوم الطبيعة .

تحركت الهيئة من الاسكندرية سنة ١٧٦٢ فوصلت الى اليمن ، حيث توفى رئيس البعثة *VON HAVEN* وطبيبها الدكتور *FORSKAL* اما العضوان الآخران *DR. CRAMER. BAUERNFEIND* فقدوا فاقها الاجل وهما في طريقهما إلى بومباي . وبذلك اصبح نيبور العضو الوحيد الذي بقي على قيد الحياة من الهيئة : فاستمر بمفرده على انجاز رحلتـــه وتدقيقاته . ووصل في سنة ١٧٦٥ الى (ابي شهر) قادماً من مسقط عن طريق الخليج الفارسي . ومنها ذهب الى شيراز مع أحدى القوافل ورســم

خرائب برسيبوليس هناك.

ثم عاد الى البصرة ومنها وصل الى بغداد وكان ذلك سنة ١٧٦٦ وقد سافر منها الى الموصل ثم استمر في طريقه حتى وصل الاسكندرونة على سواحل سوريا.

وبعد زيارة فلسطين وقبرص، مر من الاناضول فبلغ الاستانة في شباط ١٧٦٧ ومنها عاد اخيراً الى (كوبنهاكن) في تشرين الاول من نفس السنة بعد غيبوبة دامت سبع سنوات. وقد دون رحلته هذه باللغة الألمانية في مجلدين، طبع المجلد الثاني منهما وهو يبحث عن العراق في سنة ١٧٧٨ في كوبنهاكن ومنه ترجمنا هذا القسم.

ولنيبور معلومات واسعة في التاريخ وقابلية كبيرة فى علوم الرياضيات والفلك وهو يصف لنا الطبيعة والسكان وأخلاقهم فى ايجاز ووضوح، يستنسخ الكتابات التي يشاهدها وهو أول سائح اجنبي رسم لنا خرائط الاماكن التي يزورها بصورة دقيقة.

اما ما يختص بالتعليق على نص الكتاب وهوامشه، فهو أمر يتطلب بحوثاً عميقة ودقيقة للغاية حيث ان كثيراً من الأماكن المذكورة قد اندثرت اسمائها بمرور الزمن، وقد تركنا تدقيقها إلى مؤرخينا الأفاضل متجنبين بذلك التدخل فيما يعد خارج نطاقنا كمترجين، مكتفين ببعض الايضاحات البسيطة، التي لم نر بدأ من ادراجها آملين ان نستميح معذرة القراء المحترمين.

فاذا كنا قد وفقنا بهذه الترجمة الى اعطاء فكرة مسهبة عن الحيـــاة الاجتماعية في تلك الفترة من تاريخ العراق، فان مساعينا تكون قد تكللت بالنجاح.

سعاد هادي العمري

ملاحظات عن البصرة

تقع مدينة البصرة على الضفة الغربية لشط العرب على خط العرض ٣٠° ٣٠َ ويبلغ محيطها ، بموجب المخطط الذي وضعته لها في اللوحة ٣٩ (يقع في مقدمة هذه الترجمة) ، زهاء $\frac{1}{2}$ ١ ميلا المانيا (١) الا انها بالنسبة الى سعتها ، لا تكون عامرة بالبنيان بل تكتظ بساتين التمر وحقول الحبوب ، فهي بذلك تشابه مدينة بابل القديمة الى حد كبير وتنعدم الصخور في هذه المنطقة ذات المستنقعات ، وعليه فان مصادفة الحجارة المصقولة هنا أمر نادر ويستثنى من ذلك احتمال وجودها على باب أحد الجوامع . ولو استثنينا جذوع النخل المستعملة في تشييد البيوت الرديئة ، فان أخشاب البناء هي الأخرى غالية الثمن .

والقليل جداً من البيوت ، ما كان مبنياً من الكلس والطابوق المفخور وكثير من الجدران مكسو بمثل هذه الحجارة فقط ، إلا أن اكثر البيوت وكذلك أسوار المدينة مشيدة من طابوق قد صب بشكل خاص جفف في الشمس .

وعليه ، فان دعت الحاجة يوماً ما الى ترك المدينة ، فان ما سيتبقى منها بعد مدة سيكون قليلا جداً ، بقدر ما تبقى اليوم من بابل التي كانت شهيرة

---

(١) الميل الالماني يعادل (٧٥٠٠) متراً - المترجم -

في عصور خلت .

ويبلغ عرض الشط في هذه الأطراف زهاء ربع الميل . وليس في البصرة ذاتها جدول كبير واحد فحسب بل توجـــد كثير من الجداول الصغيره الاخرى التي تكون جميعها مرتبطة بالنهر الكبير :وحيث أن مستوى الأخير يرتفع بسبب المد الى علو تسعة اقدام تقريباً ، فالمفروض أن يساعد هذا الأمر كثيراً في المحافظة على نظافة المدينة ، الا إنني لم أصادف في أي مكان آخر مدينة اسلامية اكثر قذاره من هذه المدينة .

واكثر البيوت تصب المياه القذره لمطابخها في الطرقات التي ليست معبده بالحجارة ، بل ان اكثرها قد سلطت حتى مجاريها على تلك الجهة .

وللمدينة خمسة ابواب وهي :

١ ـ دروازة الرباط أو باب رباط ،

٢ ـ دروازة بغداد أو باب بغداد ،

٣ ـ دروازة حضرت الزبير أو باب زبير ،

٤ ـ دروازة الصراجي (١) أو باب صراجي ،

٥ ـ دروازه المجموعة أو باب مجموعة .

ومسكن قابودان باشا معين في رقم ٦ من المخطط ، اما الرقم ٧ فيشير الى مسكن المتسلم ، والرقم ٨ معمل للانكليز ، اما رقم ٩ فهو معمل للفرنسيين .

وللمدينة جامع ذو منارتين وثمانية أخرى بمناره واحدة فقط وتسمى جميعها بالعربية : DSJAMEA (جامع) وهناك ايضاً ما يقارب الاربعين جامعاً صغيراً إلا أن اكثرها يمكن تسميتها بالمساجد .

---

(١) السراجي .

وقد لا تعنينا كثيراً ، كيفية تسمية الشرقيين أحياء مدنهم . وحيث أن البصرة الحالية ما زالت بعد مدينة حديثة ، وليس في وسعنا التكهن فيما اذا سيتاح لنا يوماً ما الوقوع على ترجمة لوصف مفصل لهذه البقاع ، يمكن بواسطته تعيين الأسم القديم لهذه المدينة ، كما كانت الحال في تعيين (١) الاسم القديم لمدينة دمياط (*DAMIAT*) بواسطة محلة بهذا الاسم ، لذا أود أن أدرج فيما بين اسماء المحلات المختلفه لمدينة البصره . كما ذكروها لي:

« مناخ ، مشراق ، دنانيك ، ابن عيد ، عبايه ، ميدان العبيد ، الدوغ ، ام البلابيل ، ام البزازين ، شيخ بادي ، شيخ قنبر ، شيخ جوهر ، ام الطنوق ، قبله ، شيخ عمر ، مدبغه ، نهر البنات ، شيخ حبيب ، جسر اللوح ، مكول ، معدان ، محمد تختته ، حمام كوت ، محلة القاضي ، محلة العرصه ، محلة سيد رمضان ، محلة الأفغان ، حكاكه ، حداده ، خليليه ، شربيانيه ، محلة اليهود ، محلة مرجانه ، حسن داده ، كواز ، بستان قصب ، كوارخين ، عز الدين ، محلة خان زكار ، القطانه ، سيف ، حوش الباشا ، جسر الغربان ، المجموعه ، مقبيره ، صمغونيه ، محمد جواد ، عروة ، غمقه ، بحارنه ، جسر العبيد ، بلد السياس ، الدوغ ، حلل ، مقام ، محلة الجديدة ، نظران ، صبخه ، معصره ، الخضر ، محلة الساعي ، مناوي ، بريهه ، عباس حصيرجيه ، فرمي ، صيمر ، حضراويه ، فتاله ، كوت الكومرلي ، جسر الحوز ، مجصصه ، خشابه . »

---

(١) راجع وصف مصر لأبى الفداء ترجمة *RITTER MICHAELIS* ص ٦ ، ٢٣ و ١١٥ .

ولم تزدهر البصرة الحديثه إلا في ظل حكم الشخص المسمى (سباب) أو افراسياب (١) الذي كان عيناً (AIAL) أو وجيهاً من وجوه البلده، فنال هذه الولاية من الأتراك. وقد كان هذا الشخص يشجع الأجانب على الاستقرار فيها. وبذلك ارتفع مستوى التجاره، والواقع ان للمدنية موقعاً عظيماً للتجاره. وقد تسلم الحكم بعده ابنه علي باشا (٢) وأعقب هذا ايضاً حسين باشا (٣) الذي كان احد أبناء علي باشا (٤) الآنف الذكر. وقد اعتبر هؤلاء جميعاً البصره والمناطق العائدة اليها ملكاً خاصاً بهم وقد جعل علي من القرنه، التي كانت موقعاً مكشوفاً في المصب المشترك لدجلة والفرات، قلعة على الحدود، ثم زاد حسين في تحصينها بسور ثان. وهذا الأخير هو الذى قام ايضاً بتوسع مدينة البصرة. وبما أن هذه المدينة كانت في السابق بعيدة

---

(١) راجع تاريخ العراق بين احتلالين لمؤلفه الأستاذ الفاضل المؤرخ عباس العزاوي - المجلد الخامس صفحه ٢١ - المترجم -

(٢) - راجع تاريخ العراق بين احتلالين لمؤلفه الأستاذ الفاضل المؤرخ عباس العزاوى - المجلد الخامس الصفحات ٢١ و ٣١ و ٤٤ - المترجم -

(٣) راجع تاريخ العراق بين احتلالين لمؤلفه الأستاذ الفاضل المؤرخ عباس العزاوي المجلد الخامس الصفحات ٤٤ - ٤٨، ٧٥ - ٧٨ والخ... - المترجم -

(٤) لكل من PIETRO DELA VALLE و TA'VERNIER معرفة بهذين الباشوين الاخرين. - المؤلف -

عن شط العرب ، فقد مد هذا الشخص اسوار المدينة حتى النهر ، وبذلك اصبح كثير من البساتين وحقول الحبوب ضمن المدينة ، ولم تشيد الأبنية عليها في أي وقت ما . وقد حصن ايضاً قرية (مناوي) وبذلك أصبحت له قلعة في مقر مدينته ، وبالاضافة إلى هذا شيد جامعاً في البصرة لا يزال للان يعد أفخم جامع فيها . ولكونه منح حرية واسعة للمسيحيين فقد اجتذب كثيراً من المنسوبين لهذا الدين الى مقره . وبهذا ازدهرت التجارة أكثر فأكثر باطراد . أصاب الغرور حسين باشا لغناه الطائل الى حد جعله يجرأ على جعل كثير من القرى العائدة الى باشويه بغداد ترضخ لحكمه . وقد كان قوياً لدرجة كافية مكنته من طرد القوات التركية المتقدمة نحو البصرة ، مراراً عديدة . وبالرغم من ذلك فانه حين علم انه ليس بمقدوره مقاومة الباشوات المجاورين ، ارسل أحد اقاربه الأقربين الى الاستانه محملا بالهدايا الكبيرة لتقديم طاعته الى السلطان . وقد استخدم هذا الرجل الذي كان في مقتبل العمر ، الأمانات المودعة لديه ليكتسب اصدقاء له بواسطتها . فوعد بأداء واردات سنوية معينة في حالة طلبهم بتكليفه هذه الولاية وحيث أن السلطان ايضاً ، وجد هذا الأمر أسهل طريقة يستطيع بها أن يجعل البصرة تحت حكمه ثانية ، فقد أعاده بجيش صغير ، ليسلمه زمام هـــذه المدينة . وكان الأهالي كافتهم والأعراب المجاورون فيما مضى من الموالين الى حسين باشا ، اما الآن فقد التحق كثير منهم بعدوه الجديد . وقد ضعف جيشه بعد مدة وجيزة الى حد جعله يضطر للانسحاب الى مقره . وقد ازداد بعدئذ عدد الموالين لعدوه في المدينة ذاتها مما اضطره الى الالتجاء الى (مناوى) : وعندما لم يتبق لديه تقريباً أي جند آخرين ، ترك ولايته عند ذاك نهائياً وفر الى إيران . وبعد مضي بضعة سنوات إستولى الايرانيون على البصرة

حتى طردهم الاتراك منها ثانية . وشرع السلطان بعدئذ بايفاد باشا خاص إلى هذه الولاية . إلا ان حسن باشا والد احمد باشا الشهير إستخدم القبائل العربية الكبيرة للتعرض للباشوات الجدد وهم في طريقهم عبر البادية ، لقتلهم أو اعادتهم الى حلب كرة أخرى . وعندما لم تبق لأحد رغبة في نيل هذه الباشوية ، تقدم حسن باشا مبدياً استعداده لتقديم الواردات الاعتيادية . وعلى أثر هذا تم توحيد هذه الولاية بولاية بغداد ولا تزال ضمنها للان [١] .

وقد كان ال (قابودان) [٢] باشا موجوداً هناك على الدوام طيلة المدة ، التي كان الباشوات يرسلون فيها من الأستانة الى البصرة . وكان هذا الرجل يعين من قبل السلطان ويجب أن يكون دائماً شخصية ذات رتبة كبيرة . ولديه الآن ما يتراوح بين ٥٠ الى ٦٠ (تكنه) (- وهي سفن حربية صغيرة مسطحة القعر -) وكان لزاماً عليه أن لا يطهر الفرات ودجلة فحسب بل يطهر في الوقت نفسه الخليج الفارسي ايضاً من قراصنة البحر . وبموجب العادة التركية ، فان واردات المقاطعات الكبيرة فى كل من ولايتي بغداد والبصرة تخصص له لتأمين نفقات هذا الاسطول وما يلزمه من الافراد . ولازدياد قوة باشا بغداد بصورة مستمرة ، فقد اصطفى لنفسه تدريجاً المقاطعات الخاصة بالقابودان باشا . وأخيراً ترك السلطان للباشا نفسه واجب حماية التجارة البحرية في ولايته الواسعة .

ومنذ ذلك الحين أصبح القابودان باشا فى البصرة تابعاً لباشا بغداد على

---

(١) فى نيسان سنة ١٧٧٦ انتقلت البصرة بعد حصار طويل الى يد كريم خان ، والي ايران .

(٢) الباشا الذى ينظر في الامور البحرية — المترجم —

الدوام . يسكن القابودان باشا في المناوي اما المتسلم (المتصرف) ، ففي المدينة . وتصطف تكنات القابودان باشا القليلة العدد في الشط امام بابه : وتطلق المدافع بكثرة من هذه السفن حال مرور القابودان باشا او المتسلم امامها . إلا أن هذه السفن لا تصلح للاستعمال كثيراً . وهي ضعيفة الصنع للغاية ومطلية بالـ (BITUMEN) المسمى بالعربية «زفت أو قير» ويحصل عليه بكميات هائلة من هيت وهي مدينة تقع على الفرات نحو الجهة الشمالية من الحلة على مسافة بضعة أيام .

والواقع ان جميع السفن الصغيرة السائرة بين بغداد والحلة فالبصرة ليست باحسن منها صنعاً . ويمتاز القير بمقاومته الشديدة للماء العذب إلا انه كما يذكر ، يتحلل في الماء المالح . ولهذا السبب فان تكنات القابودان باشا لا تجرأ فى أي وقت ما على الفعالية في الخليج الفارسي . ويظهر من سماع حوادث القرصنة المتكررة فى دجلة والفرات ايضاً ، أن القابودان باشا لا يبدو معنياً حتى بمثل هذه الحوادث (١) وبالرغم من ذلك فان القابودان باشا مازال

---

(١) يستعمل البصريون بدلا من الزوارق سلال دائرية كبيرة يدعونها القفة « وهي » مطلية بالقار من جميع جوانبها الخارجية ، ويعم نفعهـا في الأستعمال خاصة في المناطق التي يكون فيها قاع النهر قليل العمق وذلك لانها لا تتوغل عميقاً كما انها سهلة الدوران . ولكنها تكون مزعجة للغاية لأولئك الذين لم يعتادوا التجول فيها ، لأن الجذاف الذى سيقود مثل هذه القفة لا يستطيع منعها من الدوران حول محورها بشكل دائرى في عرض النهر . ولا تختلف السفن المسماة في البصرة (GORAB غراب أو DAUNECK دانق) عن التكنات الا في طريقة صنعها فقط وهي تستعمل لنقل البضائع بين البصرة وبغداد والحلة .

دوماً ضابطاً مهماً في البصرة . وكان المتسلم يستدعيه إلى ديوانه كما يستدعي الدفتردار والاعيان (AJAL) والـكمركجي أو الشاهبندر « وهو موظف الـكمرك » والقاضي حين تستوجب الحاجة ذلك ، لمذاكرة الشؤون المهمة .

ويكون « الدفتردار » (وهو آمر الخزينة) في سائر المدن الاخرى تابعاً في العادة للسلطان فقط . اما الذي في البصرة فان لم اكن مخطئاً ، فقد كان تابعاً لباشا بغداد فقط . ويصدق القاضي في منصبه في كل عام أو يحل محله قاض آخر يرسل من استانبول . وعلى ما يذكر فقد حدث في كثير من المرات ، ان القضاة الذين جاءوا الى هذه المدينة ، كانوا قد اشتروا فرمانهم من اشخاص آخرين وأسموا أنفسهم باسمائهم . وعليه فيمكننا بسهولة أن نستنتج ان هذا الموقع لم يشغل من قبل شخص مستقيم إلا فيما ندر . وكان لهم دائماً « نائب » أو وكيل يبقى هناك باستمرار ، وهو يعرف على الاقل الولاية ولغتها ، والواقع أن القاضي الوافد من استانبول لا يتكلم على الاكثر إلا اللغة التركية فحسب ، بينما لا يعرف أحد ما في البصرة لغة غير العربية .

وتطلق عبارة (AJAL EL BELLAD) اعيان البلد هناك على أنبل الأشراف من وجوه المواطنين . وكان أعظمهم منزلة هو الشيخ (درويش KAUASI) الذي كان يحكم الديوان بأجمعه تقريباً خلال فترة مكوثي هناك . وقد كان هذا الشخص أحد أحفاد العالم الشهير في هذه المدينة المسمى « KAUAS » الذي قام اضافة الى الخدمات الأخرى التي قدمها بتشييد جامع فخم ، حافظ عليه أحفاده الاغنياء على الدوام بحالة جيدة . وينتمي « المفتي الحنفي » ايضاً الى هؤلاء الاشراف . وحيث أن هذا المنصب كان متوارثاً ، يمكننا أن ندرك بسهولة أن هذا المنصب لم يشغل على الدوام من قبل شخص عالم ،

ولـكن الحاجة ليست ضرورية الى هذا لأن له « نائب » أو وكيل ينوب عنه .

ويدخل ضمن هؤلاء الأشراف ايضاً « نقيب الاشراف » أو رئيس كافة الذين يدعون الانحدار من نسل سيدنا محمد «ص» ، من الوجهاء القاطنين في هذه الجهة . ويكون منصبه وراثياً أيضاً وقد جعل سليمان باشا أحد هؤلاء الاشراف يمتلى منذ بضعة سنوات منصب « المفتي الشافعي » وبذلك سيكون هذا المنصب وراثياً هو الآخر ، وينتسب ايضاً إلى هؤلاء الاعيان (AJAL) ، تاجر اسمه « سيد درويش ابن سيد طالب » ، حيث كان أجداده يرافقون سابقاً القوافل الذاهبة إلى حلب . ولم يزل هو يتولى غالباً منصب « كروان باشي » وذلك لصلة الصداقة القوية التي تربطه بشيوخ المناطق التي تمر منها القوافل ، كما يلزم دفع رسوم معينة أو هدايا إلى هؤلاء الشيوخ .

وبالاضافة الى حق الاعيان « AJAL » في الزام المتسلم بعدم التشبث باي أمر هام دون الاستشارة بآرائهم في مجلس المشوره ، فقد كانت لهم امتيازات أخرى متعدده : فبينما كان على بقية الأهالي دفع مبالغ طائلة ، لم يكن الاعيان ليدفعوا أي رسم ما عن املاكهم غير المنقولة ، خاصه عن النخيل التي تشكل أكبر مصدر لثروتهم ، ولهم حق ايقاع العقوبات على فلاحيهم رغم كونهم ليسوا عبيدا لهم . وكان العلماء جميعاً وبضمنهم اللالا والكاتب ، في ذمة المفتي في الوقت الذي يحاكم نقيب الأشراف الساده والشرفاء وكان لكل من هذين الشخصين سجون يودع فيها من أقترف ذنباً من أتباعهم .

واذا قام أحد وجهاء المسلمين بتشيد جامع ما ، فان حق ادارة الأملاك التي قدمها مؤسسه لأدامة هذا الجامع ، محفوظ لاحفاده . وهم ملزمون في أوقات معينة فقط بتقديم الحساب إلى المقامات العليا ، بل لهم أيضاً حق تعيين كافة الموظفين في جوامعهم واذا انقرضت عائلة الواقف ، أو أوقف اشخاص آخرون جزءاً من ثرواتهم للجوامع أو المدارس ، فان المفتي يصبح آنذاك متولياً أي مشرفاً على كافة الواردات والنفقات . وكما شاء أن يؤكد لي معلمي في اللغة ، الذي كان ناسخاً للمكتب ، فان هذا العمل - أي عمل المتولي - يمكن أن يدر ربحاً وفيراً ، ذلك لأن المشرف كان غالباً ما يقتسم جزءاً من الواردات مع الشخص الذى يفرض تقديم الحساب اليه . وقد سمعت مثل هذه الشكاوى ضد المتولين فى المدن التركية الاخرى ايضاً . وقد وجدت الجوامع الكبيرة في هذه المدن بحالة خربة على الاكثر : وكان نفس الشيء يردد فى كل مكان ، فقد تصرف المتولي بواردات هذه الأماكن لحسابه الخاص ، وبذلك فان القليل من الجوامع ما كان سيدوم لسنوات عدة ، لو لم تداركها باستمرار الواردات الاضافية الجديدة .

وللانكشارية فى البصرة إمتيازات عظيمة جداً كما هي الحالة في جميع المدن التركية : ومن هذه الامتيازات ، أنهم لو اقترفوا ذنباً ما ، فان حق توقيفهم وايقاع العقوبة عليهم ، ممكن من قبل قطعاتهم فحسب . إلا أنه ليست هناك فى البصرة « اورتا »(١) كاملة للانكشارية . وعلى الضباط ذوى الرتب

«١» اورتا - وحدة من الجند الانكشارى . - المترجم .

الكبيرة البقاء فى القرنة مع قدر ورهم «قازانهم»(١) اما البصرة ففيها صغار الضباط فقط .

وهم يقبلون فى قطعاتهم أسفل الأشخاص قاطبة ، بمجرد ان يقدم نفسه اليهم ،وبذلك يلحقون ضرراً كبيراً بالمتسلم وبالنشيطين من الاهالي . وبذلك فان من قبل أو سجل بتعبير أصح ، لم يصبح بالشكل الذى كان عليه الجند سابقـاً :

فالآغا والتاجر والحمال والملاح ... الخ ، يبقى في مهنته السابقة وهو لم يكن لا يتسلم راتبه فحسب بل كان عليه ان يدفع المبالغ للانكشارية لحمايته . ويشتد فسادهم للغاية بصفة خاصة ،خلال كون باشوية بغداد شاغرة . وحين توفى سليمان باشا ، لم يستطع المتسلم هناك بكافة قطعاته ، منع الانكشارية من النهب في وضح النهار لبيوت النصارى واليهود والبانيان ، بل حتى المسلمين الذين لم يسجلوا انفسهم في قطعاتهم ، وقد يحدث مراراً عديدة ان يقوم افراد « الأورتا » الواحدة بتحقير المسلمين او بقية إخوانهم فى الدين ،

«١» قازان او القدر .. لكل « اورتا) أو وحدة من وحدات الجند الانكشارى قدر نحاسي كبير يطبخ الطعام فيه ، وهو يعتبر مقدساً لدى الانكشارية . فاذا أرادوا التشاور في امر فيما بينهم ، فقد كانوا آنذاك يجتمعون حول هذا القدر ، حتى إذا عقدوا النية على الثورة خرجوا يحملون قدرهم . يعبر عن هذه الحركة في التاريخ العثماني بعبارة « قازان قالديرمق » أى « رفع القدر »وهى تشير الى ثورة الانكشارية . وكان الانكشارية يخشون وقوع القدر في أيدى أعدائهم خلال الحرب بقدر خشيتهم من اغتنام الاعداء لاعلامهم وشاراتهم . ـ المترجم ـ

الذين التجأوا الى حماية « اورنا » أخرى . وبذلك ينشب الشجار بين الانكشارية .

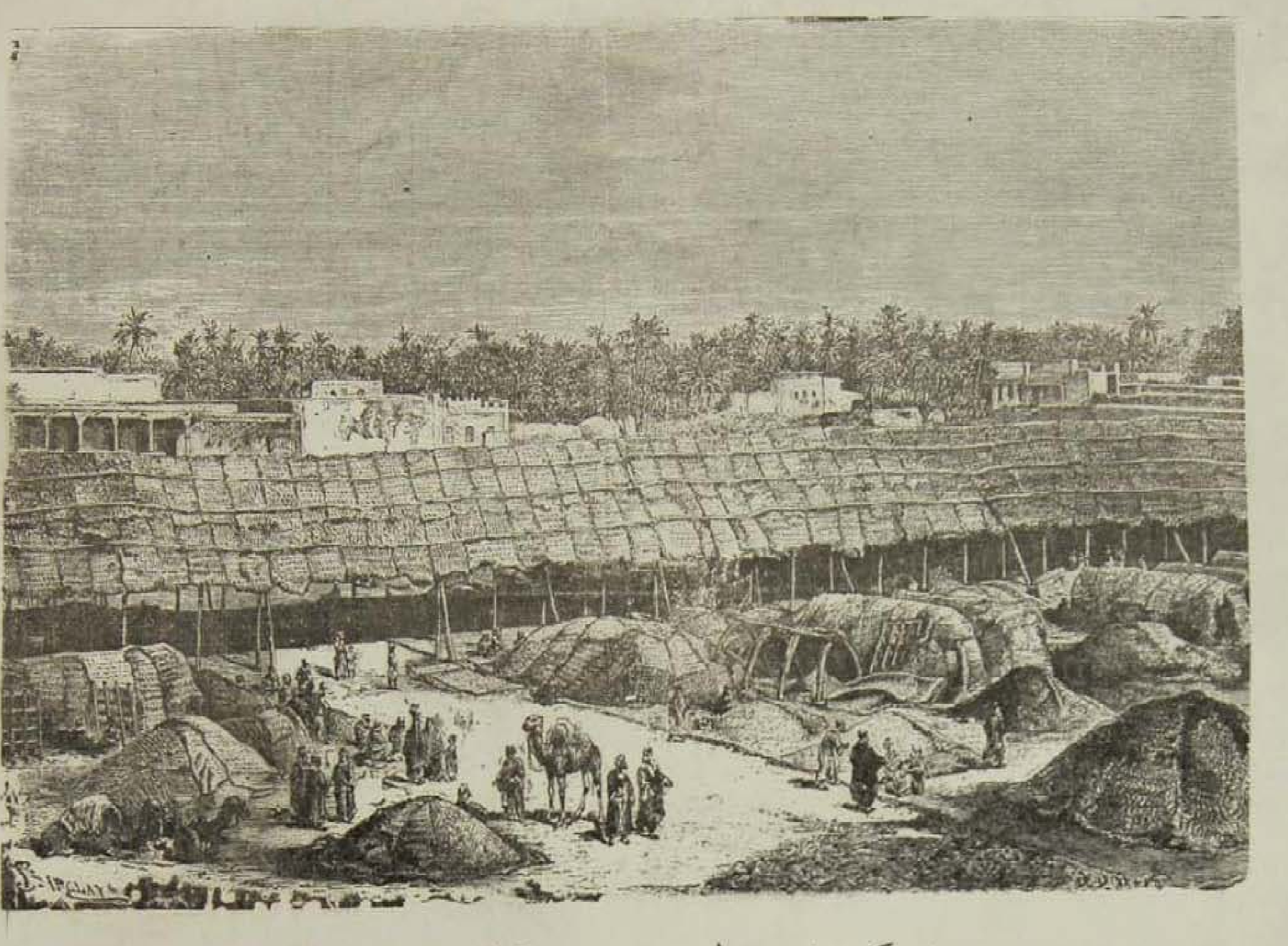
وليس من النادر أن يقتل منهم في اليوم الواحد بين ثمانية واثني عشر شخصاً . وليس عدد القتلى بين الاشخاص المستقيمين ، ممن ليسوا من الأنكشارية ، بأقل من هذا . ولتجنب الوقوع في سوره غضب هؤلاء الأشرار تاره أخرى ، ولنيل البعض من حمايتهم ، فقد سجل كثير من الناس أنفسهم في قطعاتهم .

لذا يطلق في الوقت الحاضر لقب « الانكشارى » (١) في البصره على أكثر المسلمين إبتداء من المتسلم حتى أوضع الحمالين .

وحيث ان للاعيان والانكشارية في البصره إمتيازات عظيمة جداً في الواقع ، ولاستطاعتهم في الغالب الحصول على امتيازات اكثر من هذه ، لذلك يجب أن يعلم انه ليست للمتسلم أهمية عظيمة هناك . إلا أنه يستطيع المحافظة على اعتباره ، اذا كان على جانب من رجاحة العقل . ويسود الخلاف بشقة واسعة بين الأشراف ، حتى أنهم يتحاربون فيما بينهم في أكثر الاوقات ينهب بعضهم قرى البعض الآخر .

فاذا شاء المتسلم مثلا إسقاط أحدهم لمعارضته اياه بصوره علنية في

«١» يطلق عليهم في الأصل أسم « ينكيجارى » ولكن حيث تستعمل عباره *JANITSCHAR* في الالمانية فقد حافظت عليها بهذه الصوره . وللسبب ذاته ، استعملت كلمة *MOSQUE* في الوقت الذي يسمى المسلمون فيه معابدهم الصغيره بالمسجد ، والكبيره بالجامع . ـ المؤلف ـ



ميدان كبير لبيع الحبوب في مدينة البصرة قبل مائة عام

الديوان أو مخالفته بأي شكل من الأشكال ، فعليه ان ينتظر على الأقل الحصول على دليل ما ، يستطيع به أن يملن تمادي المين في غيه . ويعد العثمانيون دائماً الجنحة البسيطة التي يرتكبها غني ما ، أعظم أهمية من جريمة أكبر قد يرتكبها أحد الفقراء ، فيخنق العين فوراً ويحتجز جانب من ثروته : فاذا دخلت النقود الى خزانة الباشا مرة ، فان الصعوبه في إستعادة بعضها ، تكون فى العادة مساوية لصعوبة اعادة المخنوق الى الحياة ثانية . وقلما يستطيع أقاربه والأعيان الآخرون أن يفعلوا شيئاً أكثر من أن يحتجوا امراً عن المظالم ، وليس بوسع لقب الانكشاري أيضاً ، أغلب الاوقات ، حماية الغني .

وقد أقرض الحاج يوسف ، الذي كان تاجراً كبيراً في البصرة علي باشا مبلغاً كبيراً ، كما حرضه من ناحية اخرى ، على تقاضى المبالغ الطائلة من التجار الآخرين بالتضييق عليهم فاكتسب نفوذاً لدى علي باشا ، جعل الاخير يستدعي المتسلم آنذاك وهو أحمد كهيا إلى بغداد ويعين متسلماً آخراً بدلا عنه . وقد استطاع احمد كهيا بعد مضي بعض الوقت أن يحصل ثانية على منصبه القديم . وقد ظهر بمظهر من يحاول بكل ما أوتي من جهد اكتساب صداقة الشخص ، الذي كانت له يوماً القابلية الكافية لأن يتسبب في عزله من منصبه. إلا ان ثقة يوسف فيه كانت ضئيلة لدرجة أنه لم يكن يخرج الى الشارع قط دون أن يصطحب الحراس بمعيته خفية ، لمحافظته من أن يهاجم غيلة. واخيراً اقتضاه عمل تجاري على التحدث مع التفنكجي باشي (وهو الآمر الأعلى لأحد الوية المشاة للمتسلم) في احدى المرات ، وقد كان يعده دوماً صديقاً له

فابرز التفنكجي باشي له عند ذاك أمراً ، يلزم عليه بموجبه أن يخنقه ونفذ الحكم في الحال . وقد القي إلى القمامة جسد هذا التاجر ، الذي كان يعول على ذلك القدر الكبير من أمواله وعلى التفات الباشا اليه ، وحماية العلماء له لكونه حاجاً أي زائراً لمكة ، وعلى معونة اخوانه له ، حيث انه كان انكشارياً . وسرعان ما استطاع أحمد كهيا الصاق التهم بالحاج يوسف واكساب عمله هذا صفة منطقية لدى الأهالي : أما علي باشا فقد أرضى بما آل اليه الأمر لأنه لم يسترجع بهذه الوسيلة سنداً بقيمة (٢٠٠) ألف قرش فحسب ، وذلك عن المبلغ الذي قبضه من الحاج يوسف ، بل تمكن فى الوقت ذاته من أن يستولي لنفسه على قسم كبير مما تبقى من ثروة هذا التعس .

وقد تقاضى عين هذا المتسلم مبلغاً مهما من أحد التجار الأرمن وذلك عن عمل لو قام به في أوربا ، لقدرته أى حكومة فيها تقديراً فائقاً . فقد أنشأ هذا الأرمني بالقرب من المدينة تماماً ، جسراً جميلا من الأحجار المنخورة على أحد الجداول ، كما أصلح الطريق العام حتى مقبرة قومه ، وهو الطريق الذي أصبح تقريباً بحالة لا يمكن معها استعماله فى الشتاء بسبب إهمال الحكومة .

وقد طلب اذناً لهذا الغرض من الحكومة . لكنه لم يستحصل فرماناً منظماً بشأنه . فاصبح بعدئذ مجبراً بسبب هذا الأمر على تأدية الغرامة . والأمر الذي لايكون نادراً في تركيا ، هو اضطرار الذين ينشئون الأبنية الفخمة إلى اقراض الحكومة المبالغ التي قلما يمكنهم إسترجاع جزء منها ثانية . لذا فان عدم ظهور الرعايا الأتراك الاغنياء بمظاهر الفخفخة ، أمر لا يدعو إلى العجب .

وإضافة إلى هذا ، فالظاهر ان الشرطة في البصرة ممتازة جداً . فقد وضعت كثير من أكوام الحبوب في ساحة السوق الواقع وسط المدينة ، وهي مغطاة بالحصران فقط . ولم يسمع أن سرق شيء منها أو اية حاجة أخرى .

ولعدم توفر قائمة المواليد والوفيات في الولايات الشرقية ، فمن الصعوبة بمكان افادة المعلومات على وجه التحقيق عن سكان المدن هناك . لذلك فان سئل الأهالي عن هذا الأمر ، فانهم يجيبون عنه على الدوام ، بعدة مئات من الألوف . إلا أن تعداد السكان هناك بصورة عامة ، ليس بالقدر الكبير الذي يظنه الناس في أوربا إستناداً على هذه الاخبار .

توجد داخل سور البصرة سبعون محلة ، واذا كان بعضها يحتوي على ما يتراوح بين ٣٠٠ و ٤٠٠ بيتاً ، فان في بعضها الآخر ما يتراوح بين ١٠ و ٢٠ بيتاً فقط . وجميع المحلات الأخرى تتكون من بساتين النخل ، كما توجد فيها ايضاً مقابر كبيرة جداً . وكما أكد لي الاشخاص الذين لهم معرفة تامة بهذه المدينة ، فان من الممكن تقدير كل محلة بمئة بيت على وجه العموم الا أن اغلبها مبني بالأحجار المجففة في الشمس فقط ، وهي بيوت صغيرة . واذا اعتبرنا أن كل بيت منها يضم سبعة أشخاص ، وهو أكثر من المعدل المتوسط ، فيجب تبعاً لذلك أن يبلغ عدد الاهالي (٥٠) ألف على اكثر تقدير . على أنني أشك أن يبلغ تعداد السكان الاربعين الفاً ، فيما لو أحصوا .

والمذهب الذي يسود المدينة هو المذهب السني . وقد استوطن كثير من الشيعة في المدينة بسبب الأضطرابات الداخلية في ايران . ولما كان السنة يتحفظون من الشيعة أكثر مما يتحفظون من منتسبي المذاهب الأخرى لنفس الدين ، لذا يدعي أغلبهم أنهم من السنة ايضاً . وبصورة عامة ، لايؤدي

المسلمون هناك ، الفرائض التي يفرضها عليهم دينهم على الوجه الأكمل . ولا يفوت الأثرياء منهم تأدية الصلوات الخمس نهاراً ، كي لا تتعرض الحكومة لهم - مالم تجد عليهم تقصيراً آخراً - بمحاسبتهم عن تأجيل الصلاة المترتبة عليهم . أما تأدية الفقير لصلاته ، فلم يكن بأمر ذي بال .

وتؤلف طائفة الأرمن الشطر الاكبر من النصاري الشرقيين وقد نزح اغلبهم الى هنا من ايران .

أما الصابئة فقليلون جداً . وقد جعلت احد هؤلاء الصابئة من الصياغ يدون لي حروفهم الهجائية . وكما اكدوا لي ، فقد كان هذا الشخص أحسنهم خطاً (١) . والى جانب ما تقدم فهناك كثير من البانيان وما يقارب مائة عائلة يهودية اما الأقوام الاوربية ، فمنها الانكليز ، الذين يزاولون تجارة واسعة ولا سيما بيع الصمغ اللك الاوربي والملا آت البرتغالية الفاخرة ، وسائر انواع الأقمشة الواردة من *SURAT* سورت ومنذ مغادرتهم اصفهان و *GAMBRON* (بندر عباس) ، اقام في البصرة منهم بصورة دائمية ، مستشار من بومباي مع بعض الكتبة . ويقيم في بغداد ايضاً تاجر عن هذه الشركة التجارية . ويعيش الممثل الفرنسي هناك دون ان توفق اعماله

---

(١) الحروف الهجائية الكلدانيه والصابئية الموجودة في الأثر المطبوع في باريس تحت عنوان (*RELATIONS DE DIVERS VOYAGES CURIEUX*) لا تختلف كثيراً عن استنساخي هذا . اما الاستنساخ الذي قام بـه *KAMPFER* فيختلف عن كليهما كثيراً ، لذا لا يمكن الاعتماد عليه . - المؤلف -

التجارية ، وعلى ما يقال ، فبالرغم من عدم تقاضيه لراتبه بشكل منتظم ، فانه يحيا حياة باذخة بأقصى ما يمكنه ولا يوجد الهولنديون في البصرة ، ولكن التجار هناك يستوردون التوابل اللازمة والعقاقير من (خرج) . ويزاول التجار من الأهلين تجارة واسعة في البن مع اليمن . ويوجد الايطاليون في البصرة على اختلافهم ، وهم يمارسون تجارة خاصة لا بأس بها مع البندقيه ولفورنو عن طريق حلب . وفي الوقت نفسه يوجد راهبان هناك ينتسبان الى المذهب الكاثوليكي الروماني ، وقد شيد هذان الراهبان الآن كنيسة صغيرة للمرة الثانيه لأن الأولى التي كانت مشيدة في عهد حسين باشا ، الذي مر بنا ذكره ، قد تهدمت .

والبادية الكبيره تبدأ حتى من قرب أسوار البصرة تماماً ، حيث تكون الارض هناك ايضاً خصبة ، بمثل الأراضي التي تجاور النهر تماماً ، والتي تكون مغطاة باجمعها ببساتين النخيل وحقول الرز . وهناك نقص فقط في السكان الذين في حالة تمكنهم من حفر الجداول وصيانتها . ومثال ذلك يظهر في محل لا يبعد كثيراً عن المدينة باستقامة الجنوب الغربي منها . فقد كانت هناك حتى الى ما قبل ٣٠ أو ٤٠ عاماً قرية كبيرة ، اما اليوم فلم يبق منها شيء عدا بناية صغيرة مشيدة على ضريح ولي مسلم ، وهي الأخرى تقع الآن في الصحراء على بعد لا بأس به . والأراضي الممتدة من البصرة الى الزبير ، حيث توجد هناك ايضاً أرض مستنقعات جميلة ، مكسوة من كافة اطرافها بملح الطعام ولا سيما في الأماكن التي أنشأت فيها سداد صغيرة لخزن مياه الامطار وتبخيرها .

ومدينة البصرة المشهورة ، إبان حكم الخلفاء الأولين ، كانت تقع بلاريب

في موضع أوفر رملا ، يبعد بمسافة تتراوح بين ١ ونصف الى ٢ ميلا المانيا نحو الجنوب الغربي باستقامه جنوبي المدينة الحالية ، التي تحمل نفس الأسم . وهناك يصادف حتى الآن بقية سور أحدى المدن ، يبدو للعين بان اجتياز محيطه يستغرق ساعتين على أقل تقدير . وفي داخله توجد جدران جامعين كبيرين يسميان (جامع علي برمكي) و (جامع صفران *SAFFRAN*) ، وفيما عدا ذلك ما زالوا هناك يرشدون الى مقابر العلماء المشهورين أمثال حسن البصري والزبير ابن علوان(١) وطلحة ابن عبيدالله وغيرهم من الذين أمر دفنهم في البصرة معلوم على وجه التأكيد .

وجميع اولئك المشاهير من العرب غير مرغوبين لدى الشيعة ولا سيما الزبير وطلحة ، لأنهما حنثا بيمين الصداقة ، الذي أقسماه الى امامها الكبير ، وحاربا ضده من أجل عائشة ، ولكن السنة يحترمونهما ، لأنهما خدما تحت أمرة سيدنا محمد (ص) كضابطين شجاعين ، وندما قبل وفاتهما على قيامهما بوجه الأمام علي ، الذي كان نسيب سيدنا محمد (ص) وأصبح خليفة بعد ذلك.

وقد بنى السنة على قبورهم وقبور الأولياء الآخرين معابد للصلاة ، هدمها الأيرانيون باجمعها في ١١٥٦ هـ . (١٧٤٣ م .) ، عندما حاصر نادرشاه البصرة الحالية . الا أن السنة أعادوا بنائها ثانية فور انسحاب الاعداء منها . وعلى ما أكد عالم أسلامي في الزبير فقد حصلت في هذا الوقت المعجزة التالية :

وهي أن حمار احد الذين يريدون الذهاب من البصرة الحديثة الى البصرة

---

(١) الزبير ابن العوام .

القديعة فر من صاحبه ، فراجع الرجل المسكين العمال ، الذين كانوا يشتغلون قرب قبر طلحة وشكى اليهم من أنه تجول طويلا فى البادية ، دون إن يوفق في العثور عليه ، فتألم الجميع لما أصابه وتوجهوا بدعائهم الى الولي ليعيد الحمار الى صاحبه . وبعد مضى فترة وجيزة ، شوهـــد الحمار راجعاً باتجاه ضريح طلحة ، وهو يعدو باقصى سرعته وكأن وراءه من يسوقه بالسوط .

وقد سقطت القبه الجديدة ، التي شيدت على قبر حسن البصرى مرة ثانية . ولكنهم لم يتمكنوا من التعرض للمعمار الذي شيدها بالعقاب لذنبه هذا : فقد ظهر الولى في منام أحدهم وأكد له ان انشاء القبة لا يؤدى خدمة له وطلب عوضاً عن ذلك إنشاء برج صغير على قبره : واضاف على ذلك أنه لا يود ان يرقد وسط البرج ، بل يفضل أن يكون رأسه حذو الحائط تماماً ، لكي لا يطوفوا حول قبره بشكل دائري (١) .

ويرقد الزبير تحت قبة كبيرة ، قرب جامع جميل ذي منارة واحده . وعلى ما أكد لي إمام هذا الجامع ، الذي روي لي الحكايات السابقة ، فانه ، حين القى على الزبير التحية ذات مره ، أجابه عنها . وقد سألت الكثيرين بعدئذ عما اذا ردت اليهم التحية من أوليائهم في أي وقت ما . ولكن يبدو أنهم كانوا قنوعين جداً ، فبموجب معتقداتهم لم يكونوا ليتوقعوا مثل هذا اللطف لآثامهم الكثيرة .

وقد ارشدني الأمام أيضاً الى الشجره ، التى من المفروض ان الزبير قد

---

(١) يرقد بجانبه ، تحت قبة خاصة ، شخصية تدعى (محمد ابن سيرين) ويذكره المسلمون ايضاً بحرمة فائقة ـ المؤلف ـ

قتل تحتها . غير أنها كانت تقع داخل السور ، في الوقت الذى تذكر فيه التواريخ العربية أنه فقد حياته خارج المدينة .

وفي مكان لا يبعد كثيراً عن هذه المدينة القديمة ، دفن (عبدالله ابن أنس) الذي كان والده حاجباً لسيدنا محمد (ص).

ولما كان المسلمون يرغبون في أن يدفنوا بجانب أوليائهم ، فمازال كثير من الاموات يجلبون من البصرة الحديثة الى البصرة القديمة .

لقد دمرت المدينة فى آنها الى حد كبير ، حتى أنه لم يباشر بتشييد بعض البيوت الصغيرة حول قبر الزبير من جديد ، إلا منذ ثلاثين أو أربعين عاماً وقد سميت البصرة القديمة هذه منذ ذلك الحين بالزبير . سكن هذا المكان منذ ثمانية أو عشرة أعوام ، عدد غفير من السنة ، الذين طردهم من نجد ، مؤسس المذهب الجديد المسمى عبد الوهاب ، حتى اصبح بالامكان تسمية الزبير بالمدينة الصغيرة ، وذلك لانه شيد هناك ايضاً جامع آخر ، إضافة الى الجامع المذكور .

لم أوفق في الزبير على الأطلاع على أية معلومات بصدد الزمن والمناسبة التي خربت بها البصرة القديمة . وعلى رأي الأمام المذكور ، فقد هدمت عاصفة قوية البيوت والجوامع جميعها مرة واحدة ، وبنتيجة ذلك شيد سكانها على الفور البصرة الحديثة ، ولكن ليس من الجائز حدوث مثل هذا الامر بهذه السرعة ، بل على العكس من ذلك ، فأن سقوط هذه المدينة على أية حال كانت نتيجة طبيعية للادارة السيئة لحكومة المسلمين (١) وقد نتج عن ذلك أن خلت البلاد الكلدانية ، التي كانت غنية بالسكان في حينها

---

(١) من الصعب الاخذ بهذا الحكم الذي جاء به نيبور ، حيث ان التاريخ يؤيد ازدهار البصرة تحت ظلال الحكم الاسلامي ـ المترجم ـ

من أهاليها حتى لا توجد فيها أية قرية إلا قرب الأنهر الكبيرة ويشاهد في البصرة القديمة حوض لنهر جاف أو على الأصح قناة محفورة يسميها العرب (DSIARRI ZAADE) كري سعدة أو (HAFFAR ZAADE).(١)

وقد مدت هذه القناة إبتداء من هيت وهي مدينة صغيرة تقع شمالي الحلة على مسيرة حوالي ستة ايام منها وذلك من الفرات حتى الكوفة ، ومنها وصلت الى أبعد من ذلك أى الى البصرة ، حيث تصب في خليج يدعى بهور عبدالله (CHOR ABDILLA) أسفل المدينة بما يقارب الثلاثة اميال المانية.

وكما يروى العرب فان كلا من شاطئي هذه القناة كان محاطاً بالأشجار وقد أخصبت هذه القناة الأراضي المحيطة بها إلى مسافة بعيدة ، ولكن المياه لم تعد تصل اليها منذ سنوات عدة . واصبحت الآن الأراضي المغلة سابقاً ، بادية يتجول فيها البدو فقط. لذا فان هجر البصرة لا يعد معجزة بالطبع بعد أن فقدت نهرها ، وما ترتب على ذلك من فقدانها لكافة قراها المجاورة فنزح

---

(١) مما لا شك فيه أن (DSIARRIZAADE) كرى سعدة هو النهر الذي يسميه اليونانيون (PALLOCOPAS) وقد سافر الاسكندر من بابل عليه قبيل وفاته . ويصف (ARRIANUS) هذا النهر في كتابه السابع بما يأتي :- « ان نيبور قد استقى هذا الهامش من المؤرخ اليوناني « ARRIANVS » المولود في سنة (٩٠) ميلادية ونشرها بالنص اللاتيني وقد تفضل الأستاذ الفاضل الدكتور روفائيل بيداويد بترجمتها من اللاتينية الى العربية على النحو التالي - المترجم - » :- =

السكان الى سواحل الفرات التي تتوفر فيها المياه والتي يحتمل أنها كانت تفتقر الى السكان حينذاك .

= وفيما كانت المراكب (١) تعد للسفر والمرفأ يحفر عند بابل ، نزل الاسكندر عن طريق الفرات الى نهر بالاكوبا ، وهو يبعد عن بابل نحو ثمانمئة غلوة (٢) ينسلخ هذا النهر من مجرى الفرات عند فيضانه وهو لا ينبوع له . وينبع الفرات من جبال ارمينيا ، وفي الشتاء يضيع بين الضفتين لقلة مياهه ، الا انه في غرة الربيع وفي الانقلاب الربيعي خاصة ، يصير كبيراً وتزخر ضفافه فيسقي اراضي الآشوريين ، فالثلوج الذائبة في جبال ارمينيا تزيد مياهه بغزارة ، واذا لم توجه مياهه الى بالاكوبا ويخفف مسيله في المستنقعات والغدران ، غمر المنطقة المجاورة كلها لشدة ارتفاعه . تبدأ المستنقعات من مجرى هذا النهر وحتى منطقة بلاد العرب مارة بمخاوض كثيرة لتصب اخيراً في البحر عن طريق مسالك خفية . وبعد أن تذوب الثلوج وخاصة عند مغيب الثريا (٣) ، يعود الفرات صغيراً بعد أن يعبر القسم الأكبر منه الى البحيرات عن طريق بالاكوبا . واذا لم تسد مجاري بالاكوبا ثانية - اذ تستمد المياه الى الجهة المقابلة فتتجاوز الضفاف - تتلاشى مياه الفرات المنحدر فيمتنع سقي حقول الآشوريين . ولذلك عني المرزبان البابلي كثيراً بسد منافذ الفرات في بالاكوبا « لكن هذه المنافذ تفتح بسهولة » . =

---

(١) *triremis* هو ضرب من المراكب القديمة ذات ثلاث صفوف من المجاذيف .

(٢) الغلوة مقياس قديم للطرق طوله ستمائة قدم يونانية .

(٣) الثريا هي السبعة كواكب في عنق الثور .

وقد وقعت المعركة الشهيرة بين الامام علي (رض) وعائشة (رض) بموجب التاريخ العام قرب (KHOREIBA) ، وهو موقع لايبعد كثيراً عن

= ولما كانت تلك الأرض كثيرة الطين لترطبها بمياه النهر ، فهي لا تسمح برجوع المياه الى الوراء بسهولة ، حتى ان (١٠ر٠٠٠) آشوري بذلوا ثلاثة اشهر كاملة في هذا العمل . ان حكاية هذه الأمور للاسكندر دفعته الى التفكير في مشروع مفيد للاشوريين : فعمل على احكام سد منافذ الفرات عند منبع بالاكوبا . وبعد أن تقدم ثلاثين غلوة ، عرضت له ارض حجرة ، لو فرضنا أنها سويت لتتصل بمجرى بالاكوبا القديم ، لكان نقلها للمياه عسيرا بسبب صلابة تربتها : فكان يرى تحويل المياه وافاضتها في اوقات معينة من السنة امراً هينا . ولذلك ركب النهر عن طريق بالاكوبا فالبحيرات حتى نزل الى بلاد العرب حيث وقع نظره على مكان طيب ابتنى فيه مدينة وحوطها باسوار وجلب اليها جالية من الأجراء اليونان والمتطوعين ومن المقعدين عن مزاولة الحرب بسبب الشيخوخة او لاسباب اخرى .

ـ انتهت ترجمة الأستاذ الدكتور روفائيل بيداويد ـ

ما اعظم النظام في هذه البلاد التي اتحد سكانها وحفروا جدولا يمتد طوله الى مسافة عدة ايام لغرض جعل البادية خصبة ! لا بد أن عدد السكان في هذه الفترة كان وافياً ، إذ أنهم لم يفكروا في حفر نهر (PALLACOPAS) ، إلا بعد أن استوطنوا في كافة اطراف MESOPOTAMIA ارض ما بين النهرين ، التي تستمد مياهها من كلا الجانبين . والظاهر أن حالة النهر المذكور =

لعله صفوان

البصرة . ولايستطيع اهل الزبير فى الوقت الحاضر تعيين موقـــع المعركة بالضبط ، الا انه على حدقولهم ، فقد جرى القتال في (وادي سيدSEBAN)

= كانت حسنة أبان قدوم المسلمين إلى هذه المنطقة ، لأن كلا من مدينتيهم الشهيرتين ، الكوفة والبصرة ، كانتا واقعتين عليه . وحيث أن تلك المدينتين قد تهدمتا خلال البضعة مئات من السنين التالية ، فان ذلك يدل على أن هذه البلاد أهملت بعد زمن قصير من حكمهم الى حد يدعو إلى العجب . وربما كانت البحيرة الواقعة قرب مشهد على والمسماة (بحر النجف) أو (بحيرة) ، أحدى بحيرات البر التي كانت تستق مياهها من الفرات بواسطة نهر (PELLACOPAS) كما يخبرنا به (ARRIANUS) . وتوجد مناطق المستنقعات الأخرى التي يغمرها الفرات لحد الآن أثنـــاء فيضانه بين السماوة والحلة .

ويبدو أن الاسكندر الكبير رجع من هذا الطريق وكان PELLACOPAS على اتصال بالفرات في القسم الأعلى والأسفل من بابل . وربما كان الجدول يستق مياهه من النهر الأصلي من عدة مواقع اخرى . لذلك يصادف الى الآن في وسط MESOPOTAMIA القديمة عدة فروع تنساب من دجلة الى الفرات وبالعكس من الثاني الى الأول

وعلى ما رأيت في مفكرة أحد الانكليز ، وكان قد سافر من حلب إلى البصرة ، فانه صادف فى البادية في موضع يقع على بعد « ٢٤ » ساعة من هيت باتجاه الشرق الى الجنوب الشرقى ، مدينة مهجورة بأجمعها ، يبلغ ارتفاع اسوارها خمسين قدما وعرضها اربعين قدما وكل من واجهاتها الأربعة تبلغ =

(لعله سيسبان) وهو واد كبير يقع بين البصرة وجبل سنام . وهناك قرية تدعى (كويبده)ويمكن للمؤرخين تحوير هذا الاسم ببساطة الى (KHOREIBA)

وفي بقاع قليلة من العالم فقط ، يمكن العثور على كل هذه الاصناف العديدة من التمر ، كالأصناف المتوفرة في البصرة . حتى أن العرب يقسمون هذه الأصناف ، كما هو الحال مع أدويتهم ، إلى صنفين : بارد وحار . يعد أولهما مفيداً والآخر مضراً بالصحة . إلا ان هذا التصنيف لايبين شيئاً بصورة عامة إلا في الافادة بأن الصنف الذي يطلق عليه بلغة العامة اسم (البارد) يكون له طعم شهي وسعر غال ، بينما يتوفر الصنف « الحار » بكميات كبيرة ، كما انه سعره رخيص ، ويكون الغذاء الأساسي لفقراء الاهالي . يعتبر النوع المسمى بالتمر الخستاوي ، أفضل الأنواع قاطبة وذلك لانه لا

= « ٧٠٠ » قدماً وقد علت الأبراج اسوارها . وفي تلك المدينة او بتعبير أدق في تلك القلعة الكبيرة يوجد حصن صغير . وعلى ما بلغني بعدئذ عن هذه المدينة المهجورة ، فان العرب يدعونها « الحضر » ELKHADER وهي تقع على مســافة تبعد عما يتراوح بين ١٠ و ١٢ ساعة فقط عن مشهد علي . ومما لاشك فيه أن سبب ترك هذه المدينة يرجع الى فقدان المياه : ولعل السبب في عدم نقل كافة أحجار هذه المدينة ليتنفع بها في البناء - كما كانت الحالة مع البصرة والكوفة اللتان لم يتبق منهما شيئاً على وجه الاجمال - يعود الى عدم وجود المدن والقرى الصغيرة بجوارها .

ويبدو أن « PLINIUS » « - الكتاب السادس ، الباب السابع والعشرون - » والمحررين القدماء الآخرين ، أطلقوا اسم نهر الفرات على « PELLACOPAS » ايضاً .   - المؤلف -

يثقل على المعدة ، مهما كانت الكمية المتناولة منه بينما يعد النوع المسمى (بالزهدي) اردأ تمر في البصرة لتسببه غازات كثيره . وهو يعطى هناك للحيوانات كما يصنع منه الكحول . والفقراء فقط ممن لا يستطيعون شراء طعام أفضل يسدون به جوعهم ، يكتفون بتناوله .

ولا ينظر في بغداد إلى هذا النوع بمثل هذه الاستهانه . وربما ينمو هذا النوع من التمر في تلك التربة بشكل أفضل ، أو لا توجد في بغداد أصناف متعددة من التمر لغرض الانتخاب ، كما هو الحال في البصرة .

ونورد هنا الأنواع التاليه بين أنواع التمر الأخري التي تنمو في البصرة :

حلاوي ، استعمران ، شكر ، جوزي ، ديري ، خصاب ، خضراوي ، اشرصي ، بريم ، مكتوم ويوجد هذا النوع بجنسين أحدهما أحمر والآخر أصفر ، قنطار ، لولوي ، تمر بنت السبع ، خنزي ، اصابيع العروس ودكل وكلاهما احمر واصفر ، جوزي ، اشكر ، *TSCHABSCHAB* (جبجاب ، (حصاوي البغل) ، *SCHIIS* شيص ، *MODDAD* ، مدادي ، *BUMKIE* (لعله بوبكي) ، *KISSIB* « جسب ، كسب » ، *HOTTRIE* « حطري » واراهيمي [1] .

---

[1] وقد سمعتهم في بغداد يتحدثون عن الأصناف التالية فقط من التمر : خستاوى ، زهدي ، اصابيع العروس ، دكل ، ابراهيمي ، بيدراية ، *OWARAIE* ، *SAADE* « سعاده » ، *BARBEU* « بربن » ، قوزي *CHURMASI* خورماسي ، *KUSI* ، *OM FATTEL* ، *MRASSA* مرصع « سكرى » اشرسي *AESCHARSI* ، مكاوي .

وجميع هذه الاصناف من التمر تستخدم لصنع الدبس الذي يتناوله الأعراب مع الخبز ولكن النوع الحلو الطعم من هذه التمور والمسمى بالحلاوه" هو انسبها لصنعه .

ونواه" التمر الصلبة ، هي الاخرى لا ترمي ، بل تحفظ لغذاء الحيوانات وأظنني قرأت في أحدى كتب الرحلات أن العرب فى البصره" ، اذا شأوا أنبات نخلة جديده" ، فانهم يعمدون الى تكديس كمية كبيره" من نوى التمر يضعونها بشكل مجموعة أهرام الواحده" فوق الاخرى على الأرض . اما الآن فانهم لا يبذلون كل هذا الجهد ، إذ على العكس من ذلك تنبت نخلة من نواة واحدة ، بل ان الحاجة لم تدعو حتى الى زرع النواة لتوفر الفسائل بدرجه كافية . والفوائد المتعددة لمختلف أجزاء النخلة معلومة منذ مدة طويلة . اما أثمار الحدائق والمواد الغذائية الأخرى ، فتتوفرة هناك بكثرة ولكن الخشب مفقود ويحرق السماد بكثرة هناك ، كما هو الحال في مصر ، ويصنع النشادر من السخام .

والحراره" في أشد مواسمها هناك تبلغ درجة مرتفعة حتى أن الأمثلة على ذلك تتوافر ، وان لم تكن سنوياً ، في سقوط الناس فى الشوارع مغشياً عليهم بسبب الحراره" واضافة إلى ذلك ، فان الجو لا يكون لطيفاً بسبب منطقة المستنقعات المجاوره" ، وقذاره" المدينة ذاتها. وخلال شهر آب باكمله لم اصادف الرياح الجنوبية الشرقية إلا في مده" تتراوح بين خمسة وستة ايام فقط . وفي أيلول ايضاً ، تهب الرياح من الجنوب لبضعة ايام فحسب وفيما عداها كانت الرياح تهب دوماً من جهة الشمال والشمال الغربي . تؤثر الحراره" في جسم الانسان خاصة أثناء هبوب الرياح الجنوبية الشرقية لأنها على العموم

تتوقف عدة مرات خلال هذه المدة . فيعرق المرء كثيراً . وقد أصبحت الرياح أكثر تغيراً في حوالي المنتصف الأخير من تشرين الأول . وكان الجو في آب وايلول صحواً على الدوام تقريباً .وفي سبعة من تشرين الاول ظهرت بعض الغيوم التي تكاثفت حتى ٢٧ منه بصورة مستمرة . ومنذ ذلك التاريخ ، إبتدأ موسم الامطار مصحوباً بالرعد والبرق .

القتال بين البصريين والعرب

يحكم الساحل الشرقي لشط العرب ومصبه قبيلة عربية تدعى كعب ، وقد بحثت عنها سابقاً في بحث جزيرة العرب « ص ٣١٩ » . لا تسكن هذه القبيلة في الخيم كسائر الأعراب في البادية ، بل تقيم في المدن والقرى ، وعلى الساحل الشرقي للخليج الفارسي في الوقت ذاته . وقد كان الشيخ سليمان حاكمها الآن ، أبان تسلمه للحكم ، حاكماً لمنطقة صغيرة تعود لايران كلياً . ولكن حين حدثت الاضطرابات الداخلية في هذه الدولة ، ضم كثيراً من المناطق الصغيرة اليه ، أما مدينة البصرة ، فقد استولى منها على جزرها في الشط الواحدة تلو الأخرى ، بل حتى على منطقة « دواسر » على الساحل الغربي للنهر : وصفوة القول ، فان هذا الشيخ كان خلال مكوثي هناك ، حاكماً لمنطقة مهمة في إيران ، وعلى كافة الجزر ومصبات شط العرب العائدة الى البصرة سابقاً . ولم يكن ليدفع شيئاً الى كريم خان ، اذ أن الأخير كان بعيداً بحيث لم تدعو الحاجة إلى التوجس منه كثيراً . فاذا طلب كريم خان رسوماً منه ، أعتذر عن ذلك شاكياً عدم قابليته على الدفع ، معللا ذلك بتقاضي الاتراك الأموال الطائلة منه بالتضييق . أما اذا طلب باشا بغداد الرسوم منه ، فانه كان حينذاك ، يشكو له أمر الايرانيين معه . وكان يعرف جيداً كيف يجتذب الى صفه بالأموال أنبل أعيان مدينة البصرة . وبذلك

سمحوا للشيخ ان يضم القرى اليه ، الواحدة تلو الاخرى . فان تلقى الأعيان هذا الأمر بسكون ، فلم يكن المتسلم عند ذلك ، ليرى من المعقول أن يشنها حرباً مع سليمان على حسابه الخاص . ذلك انه طالما كان المتسلم باقياً في منصبه لفترة قصيرة ، كما هي العادة ، فقد كان قائماً ما دام يتقاضى الواردات من هناك وكان سليمان يؤدي هذه الواردات بسخاء : فان رفض المتسلم الجديد تسليم قرى أخرى اليه أو شاء ان يشن الحرب عليه ، فمنذ ذاك لم يكن ليدفع اليه شيئاً . وحتى باشوات بغداد خرجوا بأنفسهم الى الحرب مع سليمان في بعض الاحايين . فوجد آنذاك إذ من الحكمة أن يؤدي لهم مبلغاً مهماً . فكان يدعي تارة أخرى انه موال للاتراك . إلا انه كان يرجح في بعض الأحوال ان يدفع الاموال الى شيوخ العرب الآخرين ليحدثوا شغباً يشغلون الباشا به من ناحية اخرى . وقد اتخذ الشيخ « قبان » مقراً له ، وهي مدينة صغيرة تقع على الفرع الشرقي من الشط ، كما شيد سداً منيعاً على الفرع الآخر من النهر لجلب مياه النهر الى ناحيته ، لجعله اكثر صلاحية للملاحة . وفي عام ١٧٦٥ كان في حوزته عشرة (*GALVETTE*) سفن حربية وسبعون (*DAUNEK*) دانق او سفينة صغيرة يمارس بواسطتها التجارة . وازاء ذلك كانت قوة المتسلم في البصرة تتناقص سنة بعد سنة ، وقد بلغ خلال مكوثي هناك ، حداً من الضعف جعله لا يقوى على الوقوف حتى امام هذا الشيخ الصغير .

وأخيراً قرر كريم خان أن يطلب الرسوم بنفسه من الشيخ سليمان فدخل الى منطقته هذه السنة بجيش يحسب قدره . ولكن حظ مساعيه من النجاح لم يكن خيراً مما اصابه قائده أمير *KUNEH* خان في حملته ضد مير

MAHENNNA «١» (ص١٨٦) . انتقل سليمان على ظهر سفنه من جزيرة الى أخرى وخلف وراءه المدن والقرى خالية للعدو . ولم يكن بمقدور كريم خان الوصول الى الجزر ، إلا بمصاعب جمة بسبب فقدان وسائل المواصلات . فاذا تمكن بعد صعوبات كبيرة من الوصول الى جزيرة ما ، يكون سليمان آنذاك في جزيرة أخرى حتى عبر أخيراً الساحل الغربي لشط العرب الى منطقة البصرة . حيث راجع كريم خان فى النهاية ، حكومة هذه المدينة واوضح لها أن مصلحة المدينة تقضي بمساعدته الآن لمحو قوة الشيخ سليمان . فوعده المتسلم بأن سيقدم له كل المساعدة ، ولكنه أخذ يعتذر بين حين وآخر معللا ذلك بأنه ينتظر قدوم كثير من الناس والسفن من بغداد - إلا انها لم تصل في أي وقت من الأوقات . ولا ريب في أن سليماناً قد رشى الحكومة في البصرة مرة ثانية ، او ان المتسلم لم يكن لديه المال الكافي للقيام بالحرب وعندما شعر الايرانيون اخيراً ، بأن الاتراك غير جادين في مساعدتهم ، انسحبو وسمحوا لذلك العربي ان يشغل منطقته تحت حكمه مرة أخرى .

ولعل أكبر ضرر لحق سليمان من جراء حملة كريم خان ، هو أن الأخير أمر بكسر السدة في (CHOR SABLE) .

وقد كانت البيوت في مدن سليمان وقراه من البساطة ، بحيث أن الاعداء لو تكلفوا بهدمها ، لما تكبد سليمان أي خسارة كبيرة من جراء ذلك . ويأخذ المرء العجب ، من أن كريم خان بعد أن طرد ثائرين في هذا العام ،

«١» الامير مهنا ، راجع تاريخ العراق بين احتلالين - لمؤلفه الاستاذ الفاضل المؤرخ عباس العزاوي - المجلد الخامس صفحة ٢٠

- المترجم -

هما الشيخ سليمان ومير « مهنا »، شر طرده من منطقتهما ، عاد فسمح لهما بأن يسترجعا منطقتيهما تحت نفوذهما مرة ثانية ولكنه لم يكن بموجب نظام الحكم القائم هناك ، ليستطيع المحافظة على تلك المنطقة . وقد اخليت المدن من سكانها إخلاء تاماً ، لذا لم تعد فيها بعد ، الحرف او كافة المواد الغذائية . اما القرى ، فلم يكن في استطاعته المحافظة عليها لأن الأعداء كان بوسعهم أن يقفوا بسفنهم فى أى مكان ويدمروا القرى التي تريد صداقة الايرانيين . لذلك فلو شاء كريم خان أن يترك قوة الاحتلال في مدن الشيخ سليمان ، فقد كان من الواجب أن تكون هذه القوة كبيرة ، كما يلزم أن يتولى كافة نفقاتها بنفسه : وهكذا سيصبح في حالة حرب مستمرة لا يرجى له منها أية فائدة . ومن المحتمل أن سليمان أضطر تارة اخرى لدفـع مبلغ مهم إلى الأيرانيين لأنهم حافظوا بقدر المستطاع على نخيله ، ولو قاموا بقطعها لألحقوا به ضرراً لايمكن تلافيه بسهولة .

اما حسب إدعاء الاتراك ، فقد كان بمقدورهم ان يسترجعوا ثانية كافة الاماكن التي غنمها منهم بصورة تدريجية ، الشيخ سليمان . بل أنهم لوهجموا عليه عند نفس الوقت مع كريم خان ، لاستطاعوا بعناء قليل جداً إزالته تماماً . ولكن الامتناع عن حماية شخص يقتفى يتنافى مع دينهم ومع تقاليدهم في أكرام الضيف : فعـامل الاتراك جيرانهم المطرودين من ديارهم شرطرده ، بكرم ، وسمحوا بايجاد محل لهم ولقواتهم كملجأ ، فى أحدى المناطق العائدة لهم . إلا آن سليمان لم يكن راغباً في إنسحاب قطعاته من منطقة البصريين بهذه السرعة ، وذلك لأنه كان قبل كل شيء ينتظر حلول موعد جني التمر ، الأمر الذي جعل الاتراك يرون حركته على جانب كبير

من الوقاحة ، فامر باشا بغداد البصريين بأعلان الحرب على الفور على ذلك العربي القليل الوفاء وأن يستولوا على منطقته بأجمعها . وقد كان في حوزة المتسلم فيما عدا قطعاته الخاصة لواءان من المشاة (براتلي وتفنكجي) [١] الا انه لم يجرأ على القتال بتلك القوة فقط ، بل جمع بالاضافة الى ذلك قطعة من (سردن كجدي) [٢] وقبل كل من راجعه للتطوع دون ان يعنى فيما اذا كان يعرف استعمال السلاح أم لا . وصفوة القول ، أن المتسلم ألف بسرعة جيشاً قوامه يتراوح بين ٤ الى ٥ آلاف نسمة وظن أن بوسعه بهذه القوة مهاجمة سليمان ، الذي كان في ذلك الوقت مع ١٤٠٠ الى ١٨٠٠ محارب في منطقة *DAUASIR* دوامر أي انه لايزال على الساحل الغربي من شط العرب .

وعندما خرجوا من المدينة ، أظهرت كافة القطعات شجاعة فائقة ولكنهم احتاجوا أياماً كثيرة لقطع المسافة التي تكاد تبلغ « ١٠٠-١٢٠ » ميلا . أما المتسلم نفسه ، فقد بقي مع أحسن قطعاته في المؤخرة على مسافة بضعة ساعات بصورة

---

(١) براتلي - حسب المؤرخ الفاضل الاستاذ عباس العزاوي فأن البراتلي هو الحائز على (البراءة) أي الامتياز وهذا صحيح . حيث ان هؤلاء الجنود على اغلب الظن من الجنود المسمين في بقية الألوية « جبهلي » والذين كان يجلبهم اصحاب البراءة .

تفنكجي - جنود الباشا المشاة ويستوفون رواتبهم من الباشا .

- المترجم -

« ٢ » سردن كجدى - المتطوعون بالاجرة ، يجمعون خلال الحملات فقط .

المترجم

داعية . وكان أسطول (القاپودان باشا) مهما وكان (القاپودان باشا) نفسه راكبا على BASCHTERDE أكبر التكنات ومعه فيما عدا هذه السفينة عشرة تكنات اخرى و (GALVETTE = KALBET) وكل هـــذه السفن من السفن الحربية ، وتعقبها كثير من السفن الصغيرة محملة بالذخيرة والافراد . وكان الاتراك يعتمدون بصفة خاصة على سفينة انكليزية تجارية أعارها لهم الممثل الانجليزي هناك ، الذي كان كتاجر افضل مما هو كرجل دولة ، وعلى شايين إنجليزيين سيقومان بقيادة (تكنتين) . وقد تجمعت القوات الأمامية على الساحل الغربي من الشط فى موضع يقع مقابل الزاوية الشمالية لجزيرة (MOHARZI) محرزى ، وقد رسي هناك ايضاً جزء من الاسطول كان يحمل الانجليز . وفي رأس الجزيرة المذكورة ، كانت السفن الحربية المعادية راسية أيضاً . وعلى موقع يقرب بساعتين من المدينة ، ثبت المتسلم خيمته ورسى بالقرب منه « قابودان باشا » ، ذهب الاتراك في الليلة الاولى للنوم وهم مستريحو البال تماماً لاغترارهم بعظمة قوتهم البرية والبحرية. غير أنه بعد منتصف الليل ، تسللت بضعة من السفن الحربية التابعة لسليمان الى وسط أسطول الـ (قابودان باشا) فلما أيقض العدو الاتراك من نومهم، تركوا سفنهم بسرعة فائقة ، وكذلك استفاق كل من وجد منهم في مقر المتسلم : وقبل أن يتخذوا بعض التدابير الدفاعية ، رجع رجال سليمان ومعهم « ثلاث تكنات » استولوا عليها .

وفى اليوم التالي نشرت سفن سليمان (GALWETTE) أشرعتها وسارت بمحاذاة الاسطول التركي حيث قامت بنهب بضعة قرى جوار البصرة كما استولت على بعض وسائط النقل الصغيرة . ولكن سليمان لم يكن ليرغب

آنذاك في محاربة البصريين مدة طويلة ، فعقد معهم اتفاقاً تعهد بموجبه ان يدفع اليهم مبلغاً معيناً . وعلى الاثر رجع الجيش بأجمعه إلى البصرة تارة أخرى بعد غيبوبة دامت بن ١٨ و ٢٠ يوماً ، وسرح على الفور جميع أفراد ال « سردن كجدى » .

وبموجب وجهة النظر السياسية للممثل الانجليزي فان من غير الممكن أن يسخط الشيخ سليمان على الشعب الانجليزي ، بسبب اعارته البصريين سفينة وبعض لرجال لقيادة - فنهم الصغيرة . اما وجهة نظرسليمان فقد أصيبت على أنه تعرض للهجوم سواء من الاتراك أم من الانكليز ، وقد قاموا بتهديده على أقل تقدير وقد عقد صلحاً مع الاتراك ، اما بالنسبة الى الانكليز ، الذين تأخروا عن ايراد ذكرهم في المعاهدة ، فان الأمر لم يكن بهذه الصورة لذا فان سنحت له الفرصة ، فلم يكن من المحظور عليه أن ينتقم منهم . أرسل الممثل (القنصل) اليخت الصغير الى CHAREDSCH وأبي شهر . وقد سمح سليمان هذه المرة لليخت أن يمضي في رحلته بسلام . وفي حوالي منتصف تموز وصلت الى الشط سفينة ، قادمة من مدراس ولم تكن على مسافة بعيدة من البصرة ، وقد شاهد قائد الدفة الذي كان يقوم بالحراسة ليلا ، كثير من السفن الصغيرة تنحدر من النهر ولكن لم يتبادر الى ذهنه كونها للاعداء . فلما رأى رجال سليمان ، ان الانكليز لم يكونوا على استعداد ، قفزوا الى السفينة على الفور وهم يطلقون الصرخات العالية . واستولوا على السفينة قبل ان يتمكن ربانها من الخروج من حجرته [1] وكانت السفينة

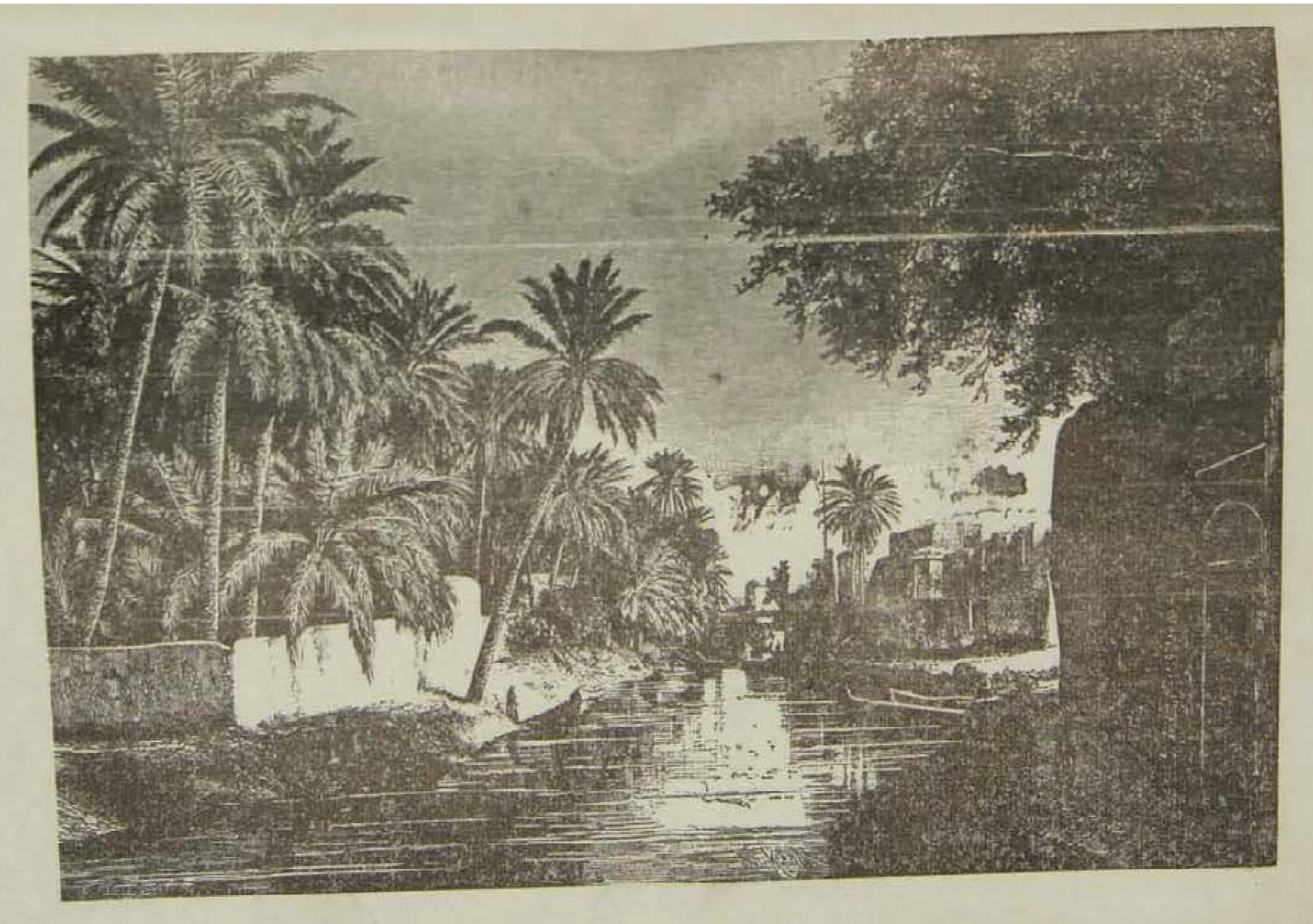
---

(١) كان الضباط وحدهم من الأوربين اما بحارتها فقد كانوا جميعاً من الهنود . - المؤلف -

الانجليزية الكبيرة (ص . ١٩٤) التي جاء بها اليخت من CHAREDSCH قد وصلت ايضاً الى مصب النهر . وفي اليوم التالي صادف رجال سليمان ، الذين كان يرومون ايصال السفينة المستولي عليها من الفرع الغربي للنهر ، الى الفرع الشرقي الى مينائهم قبان ، صادفوا للمرة الأولى سفينة (اليخت) تسير في المقدمة ناشرة قلاعها، دون ان تتوقع ما يخشى منه . ففاجأوها هي الاخرى وقادوها معهم . وحين شاهدت السفينة الثالثة ، السفينتين الانكليزيتين تعودان ادارجها ، ومعهما مجموعة من السفن (GALWETTE) ، تبادر اليها على الفور أمر الأستيلاء عليها . وحاولت الرجوع الى الخليج الفارسي ، وذلك لأنه كان في وسع سفينة كبيرة ، القيام بمناورة هناك على وجه أفضل مما تقوم به في النهر . ولكنها انغمرت في كثيب يقع أمام المصب . وقد انتظر الأعراب نفاذ الماء اليها بدرجة كافية حتى مالت السفينة على جانبها . وبذلك أصبحت كافة مدافعها غير قابلة للاستعمال . حتى اذا تم ذلك قفزوا الى السفينة وأسروا ملاحيها . ومع المد الاول جلبوا السفن كافتهـــا الى (قبان) .

لم يكن الممثل الانكليزي اينوقع هذه الضربة من سليمان . وقد أجرى معه مخابرات ، استمرت مدة طويلة ، بشأن اعادة السفن . وأخيراً توصلوا الى سبيل للاتفاق ، ولكن سليمان لم يكن ليرغب في تنفيذه قبل تصديقه من الحكومة في بومباي . وقد أرسل في هذه الآونة الى البصرة جميع الربابنة وقادة الدفة ، بعد مضي ما يناهز الثلاثة أسابيع على أسرهم ؛ وبعد مدة قصيرة وصل الملاحون جميعاً

وقد روى هؤلاء الانجليز كثيراً من الروايات التي تبين عدم معرفة



منظر العشار قبل مائة عام

العرب بطباع وعادات الأوربيين ، وبين هذه الروايات الرواية التالية :

شاهد أحد ضباط سليمان رباناً ينظر الى ساعته ، فاراد الاطلاع على هذه الحاجة . فلما سمع شيئاً يتحرك داخلها ، أدخلها بسرعة في دلو مملوء بالماء ليغرق هذا الحيوان فيه ، فلما استمرت الساعة على الحركة بالرغم من ذلك ، قذف بها ارضاً فتحطم غطاها الخارجي وأخذ لولبها ينفك فجأة . وقد فزع الاعرابي من كل هذه الظواهر ، حتى أنه سارع برمي الساعة الى خارج السفينة .

في يوم ٢٤ آب بعد الظهر ، شاهدنا ثمانية سفن تعود للشيخ سليمان ناشرة قلاعها تسير متجهه الى أعلى النهر . ولذلك سادت الحركة المدينة . وبالنظر لتخوف المتسلم من أن يستولي العرب على التكنات الراسية أمام دار القابودان باشا ، بل حتى أن يقتحموا المدينة نفسها ، فقد ذهب في الليلة التي أعقبتها الى (مناوي) مع جميع قطعاته بالرغم من أن أفرادها لا يعكرون راحتهم بسهولة في العادة . وقد طرق سمعنا في اليوم الثاني ان رجال سليمان نهبوا بعض القرى الرديئة العائدة لشيخ عشيرة المنتفك ، وأحرقوها . ويسكن أولئك الاعراب بين البصرة والعرجة وقد حاصر هؤلاء في وقت ما المدينة بل أغرقوها بالمياه ، ولكنهم الآن يؤدون الرسوم الى باشا بغداد عن أنفسهم ، لذلك يعيشون مع أهل البصرة بسلام .

لقد أوضح الشيخ عبدالله ، الذي يحكم هذه القبيلة الآن ، بأنه مضطر بسبب تصرفات سليمان أن يلوح بمهاجمة منطقته على الفور ، كما دعى المتسلم بواسطة شخص من أكثر اقاربه صلة به ، الى الاشتراك في هذه الحملة : وقبل أن يتسلم رد المتصرف التركي شوهدت بعض قطعات جيشه تمر قرب

المدينة ولكن أي جيش ؟ إنحدر بعض الاعراب مع نسائهم واطفالهم فى الزوارق على النهر بينما كان البعض الآخر منهم يمر بجماله غير المحملة قرب المدينة ومعيتهم جميعاً أكياس خالية يتوجهون بها صوب بساتين النخيل الواقعة فى الحدود الجنوبية لمنطقة مدينة البصرة . اما سليمان فقد أقترب مرة ثانية بمراكبه «*GALVETTE*» وسائر سفنه الصغيرة من المدينة ، على حين توجه المتسلم ثانية بقطعاته الى المناوي . إلا أن سليمان لم تكن له نية في الهبوط الى البر في موضع يظن وجود مقاومة له فيه ، فشرع بجني ثمار النخيل من القرى الواقعة قرب المدينة تماماً ، وكان يتقدم بعمليته تلك متوجها الى الجنوب بصورة مستمرة ، بينما أعراب عشيرة المنتفك على العكس من ذلك يجنون التمر من الجنوب الى الشمال . فكان كل منهم يقوم بعمله هذا فى منطقة مدينة البصرة .

وفى العاشر من تشرين الأول عاد أعراب عشيرة كعب إلى بيوتهم وفي اليومين التاليين رجع أفراد عشيرة المنتفك أيضاً . وعندذاك فقط تمكن البصريون من جني التمور التى خلفها لهم جيرانهم ، فتبين من ذلك بجلاء تام ، أن كلا من الشيخين عبدالله وسليمان كانا على اتفاق بشأن الاستحواذ على ثمور الرعايا العثمانيين .

وقد رغب في هذه الآونة أعراب قبيلة المنتفك ان يتظاهروا بأنهم أصدقاء للبصريين ففي كل يوم يفد عدد منهم الى المدينة ، حيث يتحدثون كثيراً عن الاصطدامات التى جرت لهم مع عرب قبيلة كعب ، لمنعهم من نهب بساتين النخيل ، حتى أنه حدث ذات مرة أن بعث الشيخ عبدالله إلى المتسلم رأسين مقطوعين ، طيف بهما قبل تسليمهما ، في شوارع السوق إشارة للظفر . وكان على أهل المدينة

ألا يكشفوا عن أفكارهم بتاتاً فيما يتعلق بذلك القتال ، وعلى حد أعتقادهم فان الأعراب قطعوا رؤوس الفلاحين الذين ماتوا مرضى ، والاشخاص الذين اعترضوا على نهب بساتينهم .

كانت الحكومة العثمانية أثناء ذلك تبدي ارتياحها إلى هـــذا التقدم الحسن لمجرى الأمور لخشيتها من رغبة المنتفكيين من جهة والكعبيين من جهة أخرى في الهجوم على المدينة وأخيراً تخاصم اعرابي من قبيلة المنتفك مع جندي من جنود المتسلم واعتدى عليه ، فلم يعد باستطاعتهم بعد تحمل مثل هذا التحقير داخل أسوار مدينتهم فاحتشد جمع غفير من (براملي) و (تفنكجي) و (انكشارية) وضربوا الأعراب الذين لم يعجلوا في الخروج من المدينة ضرباً مبرحاً .

ويدفع الأوربيون الذين يتعاطون التجارة مع البصرة ٣ بالمائة رسوماً كمركية عن كل بضاعة يجلبونها من الهند ، في حين يجب على كافة الأقوام الشرقية دفع ٧ بالمائة رسوماً كمركية : وحيث أن بضائع اولئك الآخرين يجب أن يخمنها موظفو الكمارك ، فهي ترتفع أغلب الأوقات إلى أكثر من ذلك . لذا فان عدم وصول هاتين السفينتين الهنديتين سبب ضرراً بالغاً للحكومة ، فجربت كل المحاولات لاقناع سليمان باعادة السفن ثانية .

وقد تطوع في بغداد سيد نبيل — لم تمض بعد بضعة اشهر على قدمه ٦٠٠ « دوكا »(١) من سليمان لقاء حل قضية خاصة مع الباشا — تطوع

---

(١) دوكا ـ عملة ذهبية تعادل مايقارب تسعة ماركات المانية ، تزن ٣٤٩٠ ميليغرام منها ٣٤٤١ ميليغرام ذهب .

ـ المترجم ـ

بالذهاب إلى صديقه سليمان كمندوب .فبلغ البصرة في أواسط تشرين الأول وواصل رحلته حالا متوجهاً إلى « قبان »،ولكن سليمان لم يرغب في التعرف عليه الآن . وإذ بسط السيد الى سليمان الخدمات التي أداها له من جهة ، وأيادي الباشا عليه من جهة أخرى ، أخذ سليمان يحصي المبالغ التي أداها مقابل تلك الخدمات ، بل وتردد في قبول الفرو الثمين الذي بعث به الباشا اليه إشارة لعطفه . وأكد له أن العباءة السميكة اكثر لياقة لشيخ العرب من فرو الهواة الاتراك ، سيما وان من أرسلها مثله ، شخص خادم للسلطان . والنتيجة أن السيد استقبل ذلك الاستقبال ، بحيث انه أصبح ممتناً لاحتفاظه بلحيته وتمكنه من العودة إلى البصرة ثانية ، دون يتلقى علقه .

وفي ٢٦ تشرين الأول وصل مندوب آخر للباشا كانت منزلته أرفع من سابقه ، وهو عربي اصيل اسمه عبدالله بك يعمل في خدمة باشا بغداد ، كما أنه شخصية محبوبة لدى العرب قاطبة . وقد أرسل هذا الشخص رسولا على الفور إلى قبان مخبراً الشيخ سليمان بوصوله . وقد توجه بنفسه في ٢٨ من الشهر الى هناك وبعيته ايضاً الشيخ درويش وهو من أوجه اعيان البصرة . واستقبل كلاهما بحفاوة بالغة ، بحيث أن التفخيم الدائم صرفهما عن الموضوع الأصلي . وبالنظر إلى أن الباشا أسبغ على سليمان شرفاً بإيفاده اثنين من أوجه موظفيه اليه، فقد أوفد سليمانهو الآخر ايضاً ، اكفاء مستشاريه معهما الى بغداد . وبهذه الصورة بسطلها تفائله من أن مستشاره سيتوصل مع سيدهما الى حل من الحلول . ما أكبر ذلك الذل لباشا يحكم مناطق أوسع مما يحكمه بعض ملوك أوربا . ولكن الحكومة العثمانيةفي الألوية النائية ضعيفة إلى هذه الدرجة .

كان حظ البصرة في هذا العام نحساً جداً . فعادة تصل في الخريف خمسون (TRANKIS) من مختلف الموانيء من عمان ، جميعها محملة بالبن من الحديدة ومخا . ولو رغبت السفن التي وصلت مبكراً ، مواصلة سيرها متجهة الى البصرة، لكان عليها أن تدفع رسماً كمركياً لا بأس به إلى الشيخ سليمان، وأن تشترى منه تمراً عند عودتها . فلما بلغ خبر الاضطرابات فى شط العرب الى مسقط ، نقل باقي البن الموجود هناك من السفن الصغيرة الى مدينة حربية للامام . ومع أنها وصلت في أواخر تشرين الأول الى أبي شهر ، إلا انها لم تجرأ على مواصلة رحلتها . وعلى ما سمعت في السنة التالية ، فان تلك السفينة وضعت كافة حمولتها في مخزن ما يقع فى (CHAREDSCH) ، التي سقطت هي الأخرى وسائر الجزيرة ، بيد مير مهنا . ولم تبلغني بعد ذلك أية معلومات وثيقة ، عما اذ أعاد سليمان الى الانجليز شيئاً من السفن التي استولى عليها أم لا .

الطرق المختلفة عبر البادية

بين البصرة وحلب

ان أقصر طريق من البصرة الى حلب يمر خلال البادية ، ولكنه طريق يزخر بالعشائر العربية الى حد يجعل كل واحدة منها ترى نفسها مستقلة في منطقتها وفي وسعها أن تطالب السياح بعطية ، لذا لا يستطيع أن يختار ذلك الطريق من لم تسنح له الفرصة على السفر بحمية قافلة كبيرة .

كانت التجارة في البصرة ، خلال مكوثي فيها ، متردية بحيث لم يستطيع أن يجتمع كثير من التجار هناك ليؤلفوا قافلة قوية الى الحد الكافي ، مما اضطرني الى اختيار طريق آخر ، حيث أتيحت لي فرصة التعرف على بدوي ، رحل بين البصرة وحلب أكثر من عشرين مرة عبر البادية . وهنا أرغب أن أبين للقراء طريق الرحلة ، الذي أرشدني اليه والذي زهد ببعض اسماء ، أضافها اليه أحد التجار .

يسير الطريق الاعتيادي بهذا الشكل :

الزبير ، كويبدة ، شكرة ، الخنقة ، القصير وهي قلعة متهدمة ، وادي ABUL M.RI.S ، عيون صيد ، أم GRAN (لعله ام القرون) وهو بركة أو حوض حفر على نفقة زوجة أحد الخلفاء ، الفضاري ، DSIURTEMI ، القايم أو الأثلة ، وقرب مشهد علي NAHAME ، الطقطقاذة أو الحياضية ،

ELHOSSIA.N ، الاخيضر وهي القلعة القديمة المذكورة في صفحة ٢٢٥ .
راس العين ، عميل . الكبيبة ، عقلة حوران ، ثقب الجاموس ، المامي ،
الرقفة ، البردان ، RUCHBA رحبة وهي قلعة قديمة على الفرات . جب
غنم ، الحمض ، جبل بوشير ، العذمة ، الطيبة وهو جبل . وكانت هناك قرية
بهذا الاسم تهدمت تهدماً تاماً منذ حوالي عشرين أو ثلاثين عاماً . ويتكون
KUSSUR EL CHOE.N في هذه المنطقة من قصرين قديمين . قاع
ابو الفياض ، عز الرونة ، صهاريج ، على جبل شبيث . ويوجد في هذه المنطقة
أيضاً جبل باسم LAHAS . حقلة ، عين سفيره أو عين DAHHAB حلب ، (١)

---

(١) يظهر هذا الطريق في خارطة رسمها شخص اسمه ARMISCHAL
ملحقة بالقسم الثاني من رحلة IVES . ولكن تذكر ISSABER هناك
(بدل الزبير) ، QUIBDA (بدل KOWABDE) SCHAGARA
(SCHAKRA) شقرة ، CANAGA (CHANEKE) (لعلها حناكية)
BATTAN CUSSORA (- BATTANKOSAR -) ،
ABD MURRIS ‹ ABUL MRIS › GERSME (DSJURTEMI)
KUCKMA (RAHAME) ، TICKDEGANA (ELTUKTEGANE)
التفتفانة ALKADER ‹ ELCHADER › ، AINIL RASALIN
RASEL AIN › رأس العين TAMMEL ‹ TAMAL › (لعله ابو
كال) CABASSE (KOBASE) لعلها كبيسة ، OGLET HARAN
(UKLETHAURAN) TOCAB JAMUS (TOGA DSIAMUS)
MONEAVAL (ELMANAI) DUBILGAREM (DSIUB GANNEM)
GEBOAL BUSCHIR (- BUSCHIR DSIABBEL -) =

فاذا انعدم الأمن فى الطريق المذكور آنفاً ، فعندئذ تسلك القوافل طريقاً أعلى في البادية .

وفي هذه الحالة ، يلزم عليها ان تتزود بمقدار من الماء يكفيها لمدة أربعة أو خمسة ايام . وهذا الطريق نذكره أدناه :

من البصرة الى الزبير ، كويبده ، شكره ، خنقة ، القصير ، سلمان ، الاثلة ، قطرى ، البدى ، حجره أو محيوز ، العقره ، صواب ، الصرايم ، الصخنة بير قديم ، ابو الفياض ، الحمام ، جبل الاحص ، *HOKLE* (لعلها عقلة) *SFIRE* ، حلب .

اما من بغداد الى حلب ، فتسير القوافل على الطريق الآتي :

عقرقوف ، الهيس، الفلوجة ، انوحلة ، ام الروس،صنيديج ،هيت وهي قرية . المعيمره، عين الارنب . *UKLET HAURAN* عقلة حوران ومنها تعقب طريق البصره - حلب .

فان لم يكن القتال ناشباً بين القبائل العربية أو بينها و بين الباشوات الاتراك وكان قائد القافلة رجلا مستقيماً والسائح واقفاً على اللغة المحلية معتاداً على المعيشة في ظل العادات الشرقية، فان رحلة خلال البادية لاتكون أمراً مزعجاً ولامحفوفاً بالأخطار . ولكن اجتماع هذه الشروط جميعها من النوادر .

= *INDAHAB* (*HOKLA*) *HAGLA* (*LAHAS*) *LAHAAZ* (*AIN DAHHAB*)

المؤلف

وقد عرف القارىء من الاحداث التي مر بنا ذكرها ، مدى سرعة نشوب القتال في هذه البلاد وتوقفه مرة أخرى . والاعتقاد السائد ، أن المرء عندما يغادر المدينة في سفر لا يلاقي خلال رحلته كلها شيئاً يدعو إلى التخوف . ولكنه يصادف على أغلب الأحيان ، وسط الطريق ، الأعداء المتذمرين من الشيوخ المجاورين أو الباشوات الأتراك . وفيما عدا ذلك يتوقف الأمن بصورة دائمية على أسلوب التفاهم بين الـ « كروان باشي » والأعراب ، لأجل المرور بينهم بسلام . وأكثر الأسفار أمناً ، هو السفر بصاحبة عرب بني خالد الذين يجلبون في كل عام مجموعة كبيرة من الجمال الى حلب للبيع ، ويمرون عبر طريقهم ، قرب مدينة البصرة . ومما لا يبعث أيضاً على الخوف كثيراً ، هو السفر بصحبة قافلة تجارية يقودها أحد أعيان البصرة ، الذي يكون هو الآخر تاجراً في الوقت نفسه . ذلك أنه يعنى كثيراً بحماية القافلة وسمعته الطيبة ، مما يجعله لا يهمل حماية السياح ، وقد اعتاد السفر منذ الشباب كما أنه يعرف شخصياً كافة الشيوخ الكبار ، الأمر الذي يساعد كثيراً في تطمين أولئك السياح . ولعل أكثر تعرض السائح للاخطار وتكبده للنفقات ، يحدث عندما يتسلم قيادة القافلة شخص تركي ، وهو ما جرت العادة عليه في القوافل التي تسير من بغداد الى الشام والى مكة المكرمة . ويبيع الباشا أغلب الاحيان منصب « كروان باشي » في هذه القوافل الى الشخص الذي يقدم عطاء أعلى من غيره ، مثال ذلك ، أن أحدهم تعهد بأن يؤدي هذه السنة « ٤٠٠٠ » دوكات فيما لو سمح له بقيادة قوافل الزوار الايرانيين ، الذين يسافرون في في موسم معين من السنة من بغداد الى الشام ، ويصحبهم عادة في السفر كثير من السنة والمسيحيين ايضاً ، وتقدم بعد ثلاثة اسابيع شخص آخر تعهد بدفع

«٦٠٠٠» دوكات فرجحت كفته . ويقضي الأمر على شخص كهذا ، أن يجمع عدداً كبيراً من الجند ويوزع هدايا ثمينة على كافة العشائر العربية التي يصادفها عبر الطريق : وليس في هذه النفقات التي تدفعها القافلة الكفاية ، اذ أن قائد القافلة هو الآخر يريد الحصول على مبلغ كبير في هذه الرحلة . وقد يتفق أحياناً ، زعماء القوافل ، ممن هم على هذه الشاكلة ، مع العرب على مهاجمة القافلة في منطقة معينة ونهبها . وعلى ما يؤكد لي التجار من ذوي التجربة والسن المتقدم ، فانه اذا نهبت قوافل كبيرة من قبل العرب ، فان الذنب في ذلك بصورة عامة ، يعود الى مرشدي القافلة . وقد عرضنا من قبل أمثلة على ذلك في وصف جزيرة العرب في ٣٨٦

وكما روى لي شخص سافر في قافلة كهذه ، فان على كافة التجار دفع مبلغ معين عن حمولتهم . كما يجب ذلك على السياح الآخرين وذلك عن انفسهم ، قبل الشروع في الحركة . ويتعهد ال « كروان باشي »(١) اثناء ذلك بمرافقتهم بأمان الى المنطقة المقصودة من قبلهم ، دون أن يتقاضى منهم شيئاً غير ما تقدم . فاذا لمح أولئك السياح بعض الاعراب عن بعد ، فعندئذ يتقدم نحوهم ال « كروان باشي » ببعض رجاله ممتطياً الخيل ، بينما يلزم على القافلة أن تتوقف عن السير طيلة تلك المدة وليس في وسع أحد ما إطلاق النار على العرب حتى وإن اقتربوا من القافلة كثيراً وهددوها بالنهب . وأغلب الاحيان ، تستغرق المداولات بين الشيخ والكروان باشي وقتاً طويلاً ، فتارة يرجع أحدهم وطوراً يعود الثاني ملوحاً باستعمال السلاح ؛ وحيناً آخر يهين العرب الكروان باشي ، وفي النهاية يتوصلون الى الاتفاق . وفي كل ذلك يعرف

---

(١) أمير القافلة .

الدليل كيف يقدم حسابا يقضي بوجوب على كل سائح أن يدفع مرة ثانية مبلغاً لا يقل عما طلب منه في بداية الرحلة . وبصفة خاصة ، تصعب الرحلة كثيراً في بادية العرب بالنسبة للشيعة ، فليس عليهم أن يدفعوا أكثر مما يدفعه السنة الى الكروان باشي فحسب ، بل هم في الوقت نفسه يتعرضون على الأغلب الى معاملة سيئة لكونهم من المنسوبين الى المذهب الآخر .

بحث بعض السياح عن بريد الحمام الزاجل المستعمل في الأزمنة القديمة في البلدان الشرقية (١) والموجود مثله الآن في كثير من المدن ، غير أنه لا يمكننا ان نتصور أن من الممكن إرسال الحمام الزاجل الى مختلف الاقطار كسائر السعاة . وحيث أنه لا يوجد هناك بريد يرسل في وقت معين من مدينة الى أخرى ، عني بعض التجار بتربية مثل هذا الحمام ليتمكنوا من ارسال أخبار سفرهم التي انتهت بسلام الى عوائلهم . وقد التقيت في البصرة بتاجر بغدادي ، اعتاد على استخدام هذا النوع من بريد الحمام الزاجل في كل رحلاته . وقد تربى هذا الحمام في بيته ، وألف أن يتناول غذاءه في محل معين ، وكان بأمكانه اضافة الى ذلك أن يطير بحرية متعرفاً على معالم الاماكن المحيطة في الجوار . وقد أصطحبه في رحلته الأولى الى الحلة والثانية الى الملوم والثالثة الى العرجة أو العرجاء واخيراً الى البصرة ، حيث طيره مع قطعة صغيرة من الورق ، وبذلك عاد الحمام الى البيت رأساً . والحمامة التي تترك صغارها في الدار ، رجوعها أمر محقق . وعلى ما أكدوا ، فان أنسب حمام لذلك الطرز من البريد ، يوجد في بغداد ، وهو من جنس خاص . ولست

---

(١) VOYAGES DE PIETRO DELLA VALLE TOM.I.P.284

أشك في أنه لو عنى أحد بذلك ، لكان من الممكن ايضاً تربية الحمام الأوربي على تلك الدرجة في الاتقان : وكما أكد لي فان أحد الايطاليين أستخدم ذلك الحمام أيضاً لأجل ان يتوصل قبل أهل مدينته الى معرفة الأرقام الفائزة ليانصيب سحب فى مكان آخر . ولكن هذا الأمر ليس ضرورياً جداً بالنسبة لنا ، لأن فى وسعنا إرسال الرسائل الى مختلف الأطراف تقريباً بسرعة وبكلفة رخيصة

ويروي الكسندر هاملتون «١» انه يوجد فى منطقة البصرة غربان سود وغربان بيض . يوجد أولها في غربي الفرات والآخر فى شرقه . ولو عبر واحد من تلك الفرقة الى الطرف الآخر من النهر ، لردته الفرقة الأخرى الى الوراء . يعتقد أولئك السياح غالباً بسهولة ، في كل شيء يقال . ولكنني شاهدت هناك غرباناً كلها سوداء اللون وأخرى لونها اشهب كما شاهدت غرباناً أخرى رأسها وذنبها وجناحها أسود . غير أن تلك الغربان كانت تارة فى هذا الجانب وطوراً في الجانب الآخر من النهر ، وعلى الاغلب مختلطة بعضها ببعض . وليس ثمة عربي سمع في أي وقت من الأوقات ، ان الفرات يكون حداً فاصلا بين هذه الغربان السوداء والبيضاء .

---

(١) ANEW ACCOUNT OF THE EAST INDIES VOL.I.P.78

رحلة من البصرة والملوم الى مشهد على

« تشرين الثاني ١٧٦٥ »

هناك طريقان من البصرة الى بغداد : احدهما على دجلة ، والآخر على الفرات . ويكون الطريق الأول طويلا بسبب التعرجات الكثيرة والكبيرة في النهر ، بحيث أن السياح عندما يريدون السفر من بغداد الى البصرة ، عن طريق النهر لا يسلكون في سفرهم ذلك الطريق الا فيما ندر . ولا توجد إزاء ذلك على الفرات ، تعرجات بهذه الكثرة ويسافر على ذلك النهر ايضاً الى الحلة فقط ومنها يسافر عن طريق البر الى بغداد رأساً ، وبذلك يقصر الطريق كثيراً . وفي الفرات يوجد نوع من « المنازل » فاذا شاء أحد السياح أن يستعين بأحدى وسائل النقل الصغيرة جداً ، فعليه أن يبرز « بويورولدي » (اجازة سفر ممنوحة من الحكومة) ويستأجر رجالا من محطات معينة ليسحبوا زورقه لقاء بدل رخيص . فيتمكن أن يصل بهذه الواسطة خلال « ٦ ـ ٨ » أيام إلى الحلة . إلا أنه لا بد في أيام الشتاء ، أن يكون المسافر متمتعاً بصحة جيدة جداً . وبالنظر لكثرة اللصوص في ذلك الطريق ، فقلما يختار أحد برغبته ، هذا النوع من الأسفار . ولا يسلك ذلك السبيل إلا رجال الدولة ، الذين لا يجسر العرب بسهولة على مهاجمتهم ، أو بصورة عامة الاشخاص الذين لا يتمكنون من تأخير سفرهم ، أو الافراد

الذين لا يحملون معهم شيئاً اكثر مما يحتاجون اليه أثناء السفر .

ولبثت انتظر حتى لقيت سفينة صغيرة محملة تريد أن تتوجه إلى الحلة ، فاستأجرت قارة فيها وحجرة صغيرة مفتوحة تقع أمام غرفتي ، لخادمي .

ووجدت في السفينه ، بعد ركوبي اياها ، ضابطاً انكشارياً مريضاً على شفا الموت ، يريد السفر الى الحلة أيضاً . ومن الجلي أنه لم يكن بزميل سفر يرغب فيه جداً ، سيما وأني اجهل المرض الذي أصيب به هذا الشخص الا أن ربان السفينة كان قد قبض مني أجرة السفر سلفاً ، وقد اقنع خادمي وهو مسلم من البصرة ، على التخلي عن محله لذلك المريض والبقاء في سطح السفينة . ولكي لا أكون أقل رحمة من المسلمين إزاء أحد المساكين ، وخشية من تعرضي لبغضائهم فيما لو طردت هذا المريض ، فقد استحسنت هذه المعاملة ، وتركت نفسي لما قدره لي القدر . ومن الطبيعي ان مشاهدة جاري المريض ، جعل السفرة للغاية غير مريحة . ولم أجد ، أنا المعتاد على المعيشة بين العرب ، سبباً آخر يجعلني غير مرتاح من قراري في اختيار هذه السفينة واسطة «١»

---

(١) نشير لمن أراد الأطلاع عن مختلف أنواع المضايقات ، التي يتعرض اليها الاوربي في هذه الأرجاء ، بقراءة القسم الثاني فحسب من رحلة *IVES* الى الهند وايران . ولم تخلو رحلتي هذه ايضاً ، من كثير من المضايقات ومختلف المشاكل ، الا أنني أستطعت أن أتجنب كثيراً من الأمور التي من ذلك الطرز والتي ذكرها « *IVES* » ، وذلك لاعتيادي السفر بين المسلمين .
ـ المؤلف ـ

والواقع اننا احتجنا الى ٢١ يوماً لنصل من البصرة الى الملوم حيث غادرت السفينة ، أي من ٢٨ تشرين الثاني حتى ١٩ كانون الاول ، وبذلك قمنا برحلة طويلة . لكنها أتاحت لي الفرصة ، لمشاهدات عديدة تتعلق بعلم الفلك وقد أظهر رفاقي في السفر معونتهم لي في كثير من الاوقات ، حتى انهم التفوا حولي في بعض الأحيان ، عندما كنت اضع الاصطرلاب (آلة الرصد)على الساحل ، ليمنعوا عنه الريح بثيابهم الطويلة . وقد عينت خطوط العرض المواضع المختلفة التي تقع في طريقي وهي :

في البصرة ذكرنا سابقاً	٣٠°	٣٠'
١ كانون الاول قرب المنصورية بالضبط	٣٠°	٥٢'
٢ كان الاول في *ABADA* (لعلها عباده)	٣٠°	٥٥'
٤ كانون الاول في السكوت	٣٠°	٥٨'
٦ كانون الاول في العرجه	٣٠°	٥٩'
١٢ كانون الاولى في *GRAIM*	٣١°	١٧'
١٦ كانون الاول قرب السماوة	٣١°	١٩'
١٨ كانون الاول في جوار المنطقة المسماة *ABU HARUK*	٣١°	٢٨'
١٩ كانون الاول في جوار الملوم	٣١°	٤٣'
وبعدها في الحلة	٣٢°	٢٨'

وحيث ان الفرات لا يجرى في هذه المناطق من الشمال الى الجنوب ، بل يجري على الاكثر من الغرب الى الشرق ، فمن الصعوبة بمكان تعيين طول الطريق عليه ، خاصة حين يكون السفر بعكس التيار ، حيث تندفع

السفينة تارة الى الامام بتأثير المد وتارة أخرى الى الخلف بتأثير الجزر أو الرياح العكسية (١) لذا فكثيراً ما كنا نضطر الى سحب السفينة . وبما أن مستوى الماء كان منخفضاً جداً في هذه الآونة فغالباً ما ارتطمنا بالقعر . وعندئذ كان الملاحون المساكين يغوصون في الماء ، حيث يلزم عليهم أحياناً العمل مدة طويلة لأعادة السفينة الى المجرى ثانية .

أقام السكان في إحدى مضارب قبيلة بني (HACHKEM) بني -حجيم سداً على الفرات لخزن الماء فيه لمزروعاتهم وتركوا فيه ثغرة ضيقة فقط للعبور خلالها . وكان التيار أيضاً شديداً إلى حد أننا استغرقنا ما يقارب نصف يوم لتجتازه سفينتنا .

لم استطع ان أثبت طول طريقنا بالضبط ، سوى بالمحطات التي يتوقف فيها الرجال الذين يسحبون زوارق البريد . ويعد هؤلا أثنى عشر « ADAK » او محلا للاستراحة « ١ » من البصرة الى القرنة ، وسبعة من القرنة الى المنصورية واثنى عشر من المنصورية إلى الكوت واثنين من الكوت الى

---

(١) يظهر المد والجزر في الفرات حتى العرجة الواقعة على بعد ١٤ ميلا المافيا من القرنة ، وعلى بعد ما يقارب ٢٨ الى ٣٠ ميلا من الخليج الفارسي . أما على الدجلة فلا يلاحظ تأثير المد والجزر الى أبعد من (العزير) ، وهي قرية اكتسبت اسمها من العزير الذى يتردد اليهود كثيراً للآن على قبره هناك . المؤلف

(١) لعله اوتاغ (خيمة للاستراحه) — المترجم —



قرية على شاطىء دجلة

العرجه ، وأربعة عشر من العرجـــة الى السماوه ، وثمانية عشر من السماوة الى ململوم ، وسبعة من ململوم الى الديوانية ، وأربعة عشر أخرى من الديوانية الى الحلة . وفى كل من هذه المواضع يحل نصف العمال بدل النصف الآخر الذي يكون في العمل وكما لاحظت ، فان البعد بين محطة وأخرى يقدر بين دقيقتين و نصف وثلاثة دقائق، أى ما يعادل ٣/٤ الميل الالماني.

وبموجب ذلك ، واستناداً الى مشاهدات خطوط العرض ، فقد وضعت خريطة للرحلة موجودة فى اللوحتين ٤٠ و ٤١ ويشاهد القاريء حالا في النظرة الأولى الى هذه الخريطة، مجرى الفرات من الحلة الى الخليج الفارسى، على طول امتداده .

وتصادف مختلف القبائل العربية بين البصرة وبغداد وعليها جميعاً تأدية الضريبة للباشا .وأول ما يظهر منها هي قبيلة المنتفك التي ذكرنا عنها آنفاً وعند وصف جزيرة العرب في ص ٣٨٦ ايضاً . وتعود الى هذه القبيلة ، تقريباً كافة القرى والمدن الصغيرة الواقعة على الساحل الغربي للفرات وشط العرب، من البصرة الى العرجه ولها مثل هـــذه الممتلكات ، فى القسم الكائن على الساحل الشرقى للنهر ، والممتد من القرنة الى نفس المسافة باتجاه الشمال . تقيم هذه القبيلة بضعة أشهر في اطراف نهر « ANTAR » عنتر ، الا أنها تتجول في الشطر الأكبر من السنة فى البادية مع قطعاتها ، حيث تعيش هناك تحت الخيم كسائر البدو الآخرين . وقد أخلوا بالأمن فى طريق الفرات والبادية مراراً عديدة ، بل انهم حاصروا البصرة ايضاً فى بعض

الاحيان . ولو ارسل باشا بغداد قوة للتصدي لهم ، فقد كانوا يعمدون الى الانسحاب الى أقصى أواسط البادية ، حال بلوغهم الخبر ، حيث لا يستطيع الأتراك اقتفائهم. ولا يذكر أن قمعت هذه القبيلة في أي وقت من الاوقات كما قمعت في عهد سليمان الكهيا ، الذي أصبح بعدئذ باشا لبغداد . وقد اعتاد هذا الشخص ، ووالد زوجته أحمد باشا الشهير على السواء ، على الخروج فى الحملات ضد الأعراب ، بنفس الاسلوب الذي يخرج به للصيد ، أى انهما كانا يهاجمانهم بغتة . لذلك لم يكن فى الوسع السفر خلال هذه المنطقة بأمان تام فى أي وقت ما ، كما في وقت حكمهما .

وقد أسر أحمد باشا ذات مرة شيخ (SAHDUN) سعدون ، وهو احد أخوان الشيخ عبدالله الذى يحكم الآن ، ولكنه اعاده ثانية مظهراً كرم نفسه ، بعد أن نبهه بوجوب حفظ نظام قبيلته في المستقبل ، على شكل أفضل ، وعلى أن يؤدى الرسوم بصورة منتظمة . ولكن بعد مدة ، ثار الشيخ من جديد . فأرسل أحمد على أثر ذلك صهره سليمان كهيا لمقابلته ، وقد توفق الى اخضاعه فى مدة قصيره بعدد قليل من الجند ، فأسر الشيخ مرة أخرى .

ولا يزال العرب للآن يتغنون بالشجاعة التي ابداها شيخهم في هذه المناسبة : كيف دافع عن نفسه بالرمح بادىء ذى بدء ، ثم بسيفه وبعدها بالدبوس « وهو نوع من الهراوات التي تستعمل للضرب ، اعتاد الشرقيون حملها على سروجهم » ، وأخيراً بالركاب فزمام فرسه . ولكنها جميعاً لم تجد نفعاً . وكان سليمان قد تلقى أمراً باعادة سعدون أسيراً إلى بغداد . وكان

الغالب يريد من المغلوب إبداء بعض الاحترامات له . ولكن العربي المفتر ، الذى ولد حراً ، لم يشأ أن يتفهم هذا الأمر . فبعد أن عدد أسماء كثير من أجداده ، سأل الكهيا ، الذى يجهل حتى والده ، « كان الكهيا كرجياً بالأصل ، بيع أسيراً فى شبابه » كيف يسوغ له طلب مثل هذا الذل من عربي أصيل ؟ وقد أغضب هذا الأمر سليمان الى حد جعله يأمر بقطع رأسه على الفور ، حيث ارسله الى الباشا اشارة لانتصاره .

فرأى بقية الشيوخ على أثر ذلك ، أن من الارجح الآن الانقياد له . وقد جاء اليه فى يوم واحد فقط بين خمسة عشر وثمانية عشر شخصاً من أشراف هذه القبيلة ، وأبدوا رغبتهم في التفاهم مع الباشا . إلا أن سليمان ، عاد ففكر أنه ليس في إستطاعته أن يجمع بسهولة مثل هذا العدد من الشيوخ معاً تارة اخرى . فأمر بقطع رؤوس هؤلاء أيضاً عن آخرهم (١) . وبذلك ضعفت عشيرة المنتفك بحيث أنها لم تجرأ حتى الآن على الثورة ثانية .

اما أحمد باشا الذى كان يقدر الشجاعة كثيراً حتى من اعدائه ، والذى كان بصورة عامة شخصاً كريم النفس ، فقد غضب جداً بادىء الأمر على التصرفات التى قام بها كهياه . ولكن اكثر العثمانيين يذكرون رحلة سليمان هذه دليلا على شجاعته ، بيما يرويها العرب إثباتاً للظلم الدنيء .

---

(١) عامل سليمان اليزيديين فى جبل سنجار بمثل هذه الخيانة ، حيث أقنع أشرف الشيوخ بالمجيء من الجبل ، وطلب العفو عن نهبتهم ، ولكنهم لم يكادوا يصلوا خيمته ، حتى أمر بقطع رؤوسهم جميعاً . — المؤلف —

تحكم شواطيء دجلة قبيلة عربية كبيرة تدعى بني لام . وتشغل هذه القبيلة أيضاً الباشا في بغداد كثيراً ، في أغلب الأوقات . وعندما أصبح أحمد لأول مرة ، باشا لبغداد ، ذهب إلى أولئك الأعراب لمحاربتهم ، عدة مرات ، إلا أنه لم يوفق في الوصول اليهم . وذلك لأن لهم في المدينة جواسيس بصورة دائمية ، فيذهب الأعراب الى المناطق النائية على جمالهم ، عند أول خبر يردهم عن توجه القطعات نحوهم . ولما ظفر أحمد بالحكم مرة ثانية ، تجمع بكافة قطعاته الخاصة أمام المدينة ، وقام باستعدادات كبيرة ، كأنه يريد بذلك أن يقوم باستعراض فخم في اليوم التالي . أما عرب بني لام الذين بلغهم ذلك النبأ ، فقد كانوا ساكنين سكوناً تاماً لاعتقادهم أن الباشا لن يهاجمهم الا إذا أهانوه من جديد ، ولن يكون ذلك الهجوم على اية حال ، قبل ان يستولي على مركز الولاية . ولكنه تحرك في الليلة التالية على الفور مظهراً بذلك سرعة فائقة ، بحيث تمكن من اللحاق بالأعراب قبل أن يبلغهم أي نبأ عن نواياه . فغنم بتلك الوسيلة مجموعة كبيرة من الجمال والخيول والحيوانات ذات القرون والاغنام وأمر بقطع رؤوس ابرز الشيوخ ، فاضعفت هذه القبيلة لحد جعلها لا تجسر على رفع رأسها مدة طويلة .

كان الباشوات يتمكنون بمثل هذه الوسائل ، أن يرضخوا لحكمهم الأعراب الذين يقطنون ألويتهم ويملكون القرى والمدن فيها . ويمكن التصور بوضوح مدى اهتمام القبائل المتجولة باستمرار في البادية ، بحكم السلطان والباشوات !

ويسمى بنو لام والمنتفك وسائر قبائل العرب الأصيلة أهل البر «BAAR» أهل البر أو البدو . وأهم أعمالهم الرئيسية ، تربية الجمال ، كما انهم يعيشون تحت الخيام اكثر أوقات السنة ، تاركين أمر الزراعة الى الفلاحين الذين لا يأمهم اشراف العرب إلا فى مواسم معينة من السنة لقبض الرسوم بكل صرامة .

يسمى « بنو كعب » المقيمون عند مصب شط العرب ، والأعراب المتوطنون دائماً فى المدن والقرى ، عرب (*HODDRI*) حضر ، حضري . وفيما عدا هؤلاء يوجد أعراب آخرون يعنون بتربية الخيل والمواشي والجاموس ، ويمارسون الزراعة وينقلون أكواخهم الرديئة كما ينقل البدو خيامهم من محل الى آخر ، ويدعى هؤلاء « *MOADAN* » بالمعدان . ونصادف في القسم الشرقى من الفرات قبيلتين منهم كلتيهما من الشيعة وهما بنو « *HAHKEM* » حچيم والخــــزاعل . والأولى صغيرة لا ترهب العثمانيين . اما قبيلة الخزاعل التي يسكن شيخها فى لملوم ، فهى تبلغ فى بعض الاحيان حداً من الغرور ، بحيث تشغل الباشا كثيراً . فقد استطاعت قبل بضعة سنوات أن تتغلب على قطعات علي باشا تغلباً تاماً ، وقد تضاعف غرور هؤلاء الاعراب عند اغتيال الباشا بعد مدة قصيرة من ذلك . فلا يسمح هؤلاء بمرور أي سفينة تقريباً من الفرات إذا لم ترض بدفع مبلغ كبير . الا أن عمر باشا ، قمع هذه القبيلة ، قبل وصولي ببضعة أشهر ، فأمر بقطع رؤوس ستة او سبعة من أبرز شيوخ هذه القبيلة ونصب شيخاً جديداً

حاكما عليها . ولكن الشيخ السابق المسمى « حمود » ، والذي كان قد هرب ، عاد تارة اخرى بعد انسحاب العثمانيين : فاضطر عمر باشا أيضاً الذى لم يرغب فى الخروج الى الحلة مرة ثانية ، لأن يعهد بالحكم اليه من جديد . والحقيقـــة الواقعة ان اولئك الأعراب لم يجرأوا الآن على توقيف السفن .

وفي منطقة قبيلة الخزاعل هذه ، يكون ساحل الفرات منخفضاً للغاية ولا سيما في المنطقة المسماة « أم الخنزير » حيث يوجد القصب بكثرة الى حد يبعث على العجب ، كما تكثر في داخلها الخنازير الوحشية . والظاهر ان للنهر فروع عديدة هناك لأن عرضه لا يزيد احياناً عن « ٤٠-٥٠ » قدماً [1] .

---

(١) ويظهر ان هذه المنطقة هي نفس المنطقة التي عبر منها الاسكندر اثناء عودته من رحلته من بابل الى *PALLACOPA* (كري سعدة في الوقت الحاضر) وذلك قبيل وفاته « ص . ٢٢٣ » . ويصف *ARRIAN* هذه الرحلة في كتابه السابع على النحو التالي : (أن نيبور قد استقى هذه الحاشية من المؤرخ اليوناني *ARRIANUS* ونشرها بالنص اللاتيني وقد تفضل الاب المحترم الدكتور روفائيل بيداويد بترجمتها من اللاتينية الى العربية على النحو التالي : — المترجم —

سافر عن طريق المستنقعات ثانية وبابل عن يساره . وكان قسم من الجيش تائها في تلك المضايق بدون دليل ، فأعطى لهم دليل تقدمهم واراهم =

وتوجد دائرة حكومية كبيرة في (الحسكة) باتجاه الشمال من منطقة هذه القبيلة ، يقوم بادارتها على الدوام آغا منسوب الى باشا بغداد ، مقره في الديوانية ويعد هـذا المنصب من اكبر المناصب في جميع الولاية . وهنالك خيالة قوية تحت تصرف هذا الآغا ، وذلك ليبين للعرب ، أنهم سيتعرضون للجزاء فيما لو قاموا بمخالفة ما . وتتبين قلة اكتراث العرب بذلك مما أسلفنا ذكره آنفاً .

والأماكن التي تستلفت النظر وتصادف اثناء الرحلة من البصرة الى لملوم ، هي :

مناوي ، وهي مقر القابودان باشا ، وعلى ما أسلفنا ذكره ، وكما تشير اللوحة ٣٩ (يقع في مقدمة هذه الترجمة) ، فأنها تقع في البصرة في الأصل . ويستلفت هذا المكان نظر السائح بوجه خاص لأن عليه أن يدفع فيه ، رسماً

= الطريق معيد، اياهم الى مجرى النهر . وروى بعضهم ان قبور كثيرين من الملوك الآشوريين كانت مبنية في تلك البقاع . واذ كان الاسكندر يتابع مسيره فيها ، هبت ريح شديدة انتزعت زينة رأس الملك وتاجه ، فسقط التاج في الماء لثقله ، اما الزينة التي انتزعتها الريح فانتشبت في قصبة من القصب النامي عند قبور الملوك .

انتهت ترجمة الاب المحترم الاستاذ

روفائيل بيداويد

ويبحث *PLINIUS* ايضاً عن المستنقعات الواقعة جنوب بابل .

— المؤلف —

كمركياً طفيفاً يستوفيه القابودان باشا .

وعلى الساحل الآخر من شط العرب ، مقابل المناوي ، توجد قلعة باسم « كردلان » وهي الآن متهدمة تماماً .

أما « دير » ، فهي قرية كبيرة تقع في الساحل الجنوبي من الشط ، وعلى مسافة تبعد عن البصرة بيوم واحد تقريباً ، ولحد الان ، يشاهد هناك تل ، كبير ، يتألف من خرائب مدينة كبيرة ، على وجهة نظر زملائي في الرحلة ، فان تلك المدينة ، كانت تعود للبرتغاليين ولكن لم يتبق من أبنيتها القديمة أي شيء ، إلا منارة جميلة، وهي المنارة الوحيدة التي تصادف خلال الرحلة كلها من البصرة الى الحلة (باستثناء القرنة) .

تقع « السويب » في الجهة الشمالية من الشط على نهر ينحدر من الحويزة وتدل تلال الخرائب الضخمة ، على وجود مدينة مهمة هناك في الماضي السحيق ويجب ان يكون (CHOASPIS) لدى قدماء الجغرافيين ، إما نفس هذا النهر الذي يصب في الشط هناك ، أو نهر الحفار .

تقع « القرنة » في الزاوية التي يتصل فيها الفرات بالدجلة وهي مبنية بشكل ممتاز تماماً ، إلا أن لها من جهة البر ، سور مضاعف مشيد بطابوق الجدران المجفف في الشمس فقط واستناداً الى المعلومات التي توفرت لدي في البصرة فان هذه المظاهر جميعاً ليست بقديمة جداً . وقد شيدها الباشوان المذكوران في ص ٢١٢ ، وهما علي وحسين ، اللذان اتخذا من هذا الموقع قلعة للحدود ضد الاتراك والفرس وهناك في الوقت الحاضر خمس « اورتات » أو أفواج من الانكشارية ، لكل منهم قرعم « قازان » . وبالرغم من أن القرنة، تتمتع بموقع ممتاز ، فليس لها أي تجارة تذكر . وفي الوقت نفسه يجب على كافة السفن المارة من هناك أن تتوقف فيها ، لأداء الرسم الكمركي للانكشارية .

لم اوفق الى تعيين خط عرض هذه القلعة . وقد جلبت رسالة توصية

الضابط الانكشارية وهو ذو رتبة عالية ويقيم هناك، وقد عاملني بمجاملة فائقة، وطلب الى تناول الطعام معه ، الأمر الذي لم أتمكن من رفضه . وعندما سمع بأنى سأذهب الى السفينة في الساعة الثانية عشر ، لقياس ارتفاع الشمس في الظهر ، اضطررت الى جلب أجهزتي لأظهر بمظهر المجامل له . والواقع أنني قمت بنصب أجهزتي ولكن حيث أنهم أرادوا التطلع خلال المنظار الواحد تلو الآخر ، وغمروني بفيض من الأسئلة المتوالية ، فقد ضاعت هباء كافة الجهود التي بذلتها .

وكما ذكر آنفاً ، فان (نهر عنتر) ، هو مقر شيخ قبيلة المنتفك ويجب أن تدفع كل السفن التي تمر منه، رسماً كمركياً إلى ذلك الشيخ أيضاً ، وهو يسمح باستيفائه في محل يسمى (نحته) . وفيما عدا البيت الذي يسكنه موظفو الـــكمارك ، لا توجد بيوت اخرى فى هذا المحل . وحتى الى قبل بضع سنوات ، كانت السفن الصغيرة المحملة بالتمور تدفع هناك (محمديتين) فقط (لا تكاد تعادل حتى نصف ربيه) ، الا أن عليهم الآن أن يدفعوا خمس روبيات .

إن (المنصورية) قرية كبيرة ، وموظفوا الكمارك هناك منسوبون الى آغا الانكشارية فى القرنة . ولكن السفينة القادمة من البصرة ، اذا دفعت الرسوم فى القرنة ، عليها ان تبرز هنا وصلا بذلك فقط . في قرية الكوت أو (كوت معمر) يوجد موظفو الكمارك العائدين الى قابودان باشا في البصرة .

والكمرك في (العرجــة) ، عائد الى آل صالح ، وهي عائلة من أشرف عائلات عشيرة المنتفك وقد كان في الـ (*GRAIM*) سابقاً محل

للكمرك أيضاً : غير أنه منذ أن هجر ذلك المحل كلياً ، أصبح الرسم يستوفي في السماوة . وموظفو الكمرك في المدينة الأخيرة كانوا إلى قبل بضع سنوات رهن أوامر آغا (الحسكة) ، أي طوع أمر الأتراك . اما الآن ، فان هذه الواردات يستوفيها شيخ قبيلة الخزاعل .

كان الشيوخ الجشعون جالسين في العرجه والسماوة في دائرة الكمرك . وبالرغم من أنهم شرفوني بزيارتهم ، إلا أنهم كانوا وقحين الى أقصى حدود الوقاحة. ولم يكونوا ليظهروا أي اهتمام برخصة المرور ، التي استحصلتها من متسلم البصرة وقد استشاطوا غضباً ، حين حاولت إبراز فرمان السلطان . فرأيت من الأرجح ان أسارع الى اكتساب رضائهم بقدر الامكان . ذلك ان المسيحي ، إذا تناقش مع مثل هذه الشخصيات ، فاعتبروا أقل كلمة تصدر عنه إهانة تلحق بهم ، فعليه عندئذ أن لا يدفع ضعف الرسوم فحسب ، بل ربما تجـــاوز ذلك إلى عشرة أضعافها ، كما أنهم بالاضافة الى ذلك يسخرون منه .

وبيوت السماوة جميعها مشيدة من الطين المجفف في الشمس ، وبذلك فانها مزرية للغاية . وبالرغم من ذلك فانها لو قورنت باكواخ الفلاحين في الجوار ، التي تكون اسواء منها حالا ، لظهرت إزاءها كالقصور . وقد مات سكان هذه القرية الصغيرة باجمعهم تقريباً ، منذ بضعة سنوات بسبب الطاعون . وتكون البادية التي تحيط بها تعج بالأسود والنمور وبنات آوى ، كما يتوفر فيها كثير من الملح .

تظهر على ساحلي الفرات وشط العرب كثير من القرى الصغيرة ، ممتدة من القرنة الى العرجة ، الا أنه كما يروى فان الأراضي الكائنة في الجهة الشمالية

من الفرات معمورة الى مسافة ساعة فقط ، أما الأراضي الواقعة في الجهة الجنوبية ، فلا يتجاوز المعمور منها مسافة ساعتين . وهذه الاراضي الصالحة للزراعة ، تمتد الآن بعيدة عن النهر كالبادية تماماً بسبب خلوها من السكان والجداول . تقع القرى بعيدة عن النهر بعداً لا بأس به وهي مشيدة على أتعس طرز ويتجلى منها أن الشيوخ العرب لم يتركوا الشيء الكثير لسكانها المساكين . فالبيوت وأسوارها كلها من القصب . والخلاصة أنني لم أصادف في أي مكان ، اكواخاً أردأ من اكواخ هذه المنطقة الخصبة بطبيعتها والمشهورة منذ أقدم الازمنة ، حيث كانت منطقة غنية بالسكان . وتكون كافة الاطراف الممتدة بين العرجة والسماوة قاحلة والاسماء الموجودة هناك والمدرجة في اللوحة (٤٠) ، لم تكن حتى اسماء لبعض الاخرى .

وتسمى المنطقة الواقعة على جانبي الفرات بالجزيرة حيث أن من المحتمل أن الجداول الكثيرة الموجودة في الوقت الحاضر ، والتي كانت اكثر عدداً في السابق مما هي عليه الآن ، تكون في أراضيها جزراً عديدة .

وسكان القرى الواقعة على الفرات سباحون ماهرون ، شأنهم في ذلك شأن سكان القرى الواقعة على النيـــل . ولا تقل عن ذلك مهارتهم في اللصوصية . والملاحون هناك ، كما هي الحال في مصر ايضاً مهملون الى حد لا يقومون معه بالحراسة في الليل . لذا يصعد صغار اللصوص أحياناً الى ظهر السفينة : فان صادف أن المسافرين كانوا جميعاً يغطون في النوم ، فعند ذلك يجمعون بسرعة كل ما تقع عليه أعينهم على ظهر السفينة الذي يفترشه المسافرون عادة ، حتى إذا تم ذلك ألقوا بانفسهم الى المـــاء وبصحبتهم المسروقات . وحين حاولوا ذات مرة ، أن يجربوا هذا الأمر مع سفينتنا ،

أصاب ضابط الانكشارية المريض ، والذى لم يكن يوسعه النوم ، مساعيهم بالفشل . وفي مرة أخرى ، التفوا وراء السفينة بقوارب صغيرة وخفيفة جداً ، فسرقوا خلال ثغرة المجذاف في غرفتي ، آنيـــة للاغتسال وبعض الحاجيات الصغيرة الاخرى . وقد تنبهت من النوم على الأثر ، فلم يتمكنوا أن يحصلوا على أكثر من ذلك . وقد دب فيهم الفزع بحيث القوا بانفسهم الى الماء من قواربهم الصغيرة ، على أثر إطلاقة من المسدس .

وقد صادفنا الماء يشح بين العرجه والسماوة حتى أن السفينة إنغمرت في الغمر عدة مرات . وزيادة على ذلك ، كانت الريح من جهة وتيار النهر من جهة اخرى ، يعاكساننا مما أضطرنا إلى سحب السفينة . وقد استوقفنا الأعراب ونحن في تلك الحال عدة مرات . فكنت آنذاك أجلس على ظهر السفينة مدججاً بالسلاح وقد وضعت على رأسي عمامة كبيرة تعـــود الى الضابط المريض . وكان بعض التجـــار البغداديين الموجودين في سفينتنا يقفون بعيداً وكأنهم رهن أوامري . فان سأل الاعراب عن ركاب السفينة ، أجابهم القابودان على الدوام بأنه ينقل آغا من بغداد مصحوباً بستة من الجوخدارية . ولست أدري هل اقتنع الأعراب بأنني آغا ام لا . ولكنهم كان يبدون على الأثر مجاملة فائقة ، فيطلبون عنى العادة بضعة تمرات . ولكننى بصفتي آغا ، آمر بموافقتي على منحهم ذلك . وقد نهبت منذ ثلاثة اسابيع في هذه المنطقة ، سفينة صغيرة محملة بالتمر ، عن آخرها ، كما قتل بعض المسافرين الذين لم يشاءوا تسليم أموالهم طوعاً . وقد تلتها بعد مدة ، إحدى وسائط النقل النهري الاخرى ، حيث انغمرت في القـــاع وشرع الاعراب بتفريغها هي الاخرى ، ولكن السفينة خفت حمولتها بذلك

فحركها الملاح من هناك ، فقتل بعض الاعراب الذين كانوا على ظهرها ، يأمرون الربان بالبقاء هناك ولن يستطيع أوربي ما أن يتصور بأن الركاب قد قاموا بمثل هذا العمل . ولكن الاعراب لهم طريقة أخرى في التفكير . فقد كانوا يعلمون بوجود أشخاص من السماوة والقرنة في السفينة . لذا فقد طلبوا دفع الدية من هاتين المدينتين . وكان المظنون ان يجاب طلبهم هذا . ولو تمت خلال رحلتي هذه بقتل احد الاعراب او أصبته بجرح ، فقد كان أخوانه آنذاك ، يلقون القبض على الربان الذي يقوم بدوره بالقاء القبض علي . فكان يلزم علي آنذاك ، كمسيحي قد أهدر دم احد المسلمين ، ان أدفع اكثر بكثير مما يدفعه المسلم . فتبين من ذلك أن البنادق الجيدة للاوربين ، الذين يجولون خلال هذه البلاد ، تنفعهم في القاء الرعب في قلوب الاعراب اكثر مما تفيدهم لو استعملت حقيقة .

وصلنا في ١٩ كانون الأول (لملوم) وهي قرية كبيرة ومقر شيخ عشيرة الخزاعل . ولكن الشيخ هو الآخر لم يسكن في محل أفضل من محلات أتباعه ، إذ كان يسكن كوخاً رديئاً مبنياً من القصب .

اما الضابط الراقد أمام غرفتي ، فلم يشف ولم يمت ، وقد ضقت ذرعاً من السفر بصحبته . وبناء على ما سمعت من أن الطريق من هنا عبر الرماحية الى مشهد علي ، المدينة التي فكرت في زيارتها من الحلة ، كان أميناً لحد كاف ، فقد قررت أن اغادر السفينة الآن . وقد وافق على مرافقتي في الطريق ملا بغدادي فقير ، وعدته بأن أسفره مجاناً إلى مشهد علي والحسين . ونزولا عند رغبة رفيق في السفر من جهة ، وبسبب خادمي من جهة أخرى ، ذهبت في اليوم نفسه الى قرية تسمى *MASCHWARA* مشيدة بشكل

رديء وواقعة على الطرف الآخر من النهر . ذلك أن كلاً منهما كان من السنة لذا لم يرغبا في النزول الى البر في بلموم .

وقد أعد لي الشيخ هناك كوخاً رديئاً من القصب ، لا يتسع الى منام ثلاثة اشخاص إلا بمشقة . ولم يكن بيته بأحسن أو أوسع من ذلك ولم أجد أي سبب من هذه الناحية للشكوى من الشيخ . غير أن الخيول التي وعدني بوصولها في اليوم التالي لم تصل . فاضطررت لذلك على البقاء بجانبه ليلة اخرى . ولم يعجبني هذا الرجل لأنه كان يظهر نفسه مجاملا أكثر من المعتاد وينظر بنهم كبير الى كل شيء معي . ولذلك السبب رغبت انا والملا وخادمي أن نقوم بالحراسة مناوبة . وفي الوقت نفسه أولعنا الضوء طيلة الليلة . وقد نام خادمي ، الذي لم يعتد على السهر ، فأحس اللص بذلك ، وبينما هو مشغول بسحب حقيبة الكتابة الصغيرة ، خلال الجدار الى الخلف ، استيقظت محدثاً ضجة ، فأقبل الشيخ على الأثر فوراً وغضب كثيراً لحدوث مثل ذلك الأمر في قريته وركض الى الخارج ليمسك باللص ، وبعث فلاحيه إلى جهات أخرى ولكنهم عادوا جميعاً دون أن يعثروا على أحد . ولم يبق لدي أي شك في أن اللص هو الشيخ نفسه . ولكنني رجحت ان أثني الآن على ما بذله من جهد في ذلك ، حتى انني قدمت اليه هدية صغيرة . وحيث أن الشيخ لم يعد يتوقع ان بامكانه مباغتتنا ثانية أثناء النوم ، فقد وجدت في صباح اليوم الثاني خيول السفر معدة على الفور .

سافرت في ٢١ من الشهر الى الرماحية على مسافة تبعد سبعة ساعات ونصف أو ما يقارب خمسة أميال ونصف باتجاه الشمال الغربي والشمال . ولم أشهد طيلة ذلك الطريق أي جامع ، ولكن كثيراً من القبب

(*KUBBETS*) او الأبنية الصغيرة المشيدة على قبور أشخاص يعدون من الأولياء ، توجد بجوار القرى ، وأحيانا في اراضي الفرات الحالية . ومن المحتمل ان وجدت في السابق قرى بجوارها . وتكون الاراضي في الاطراف كلها خصبة جداً ، غير ان كثيراً من الجداول الصغيرة التي كانت الأراضي تروى بواسطتها في السابق ، هي الآن جافة ، كما أن القرى نادرة جدا . وتلوح احياناً قطعان كبيرة من الحيوانات ذوات القرون والاغنام والخيول .

وبالقرب من الرماحية يوجد جدول كبير يستقي مياهه من الفرات الواقع على مسافة ما يقارب ١٫٥ ميلا المانياً منه . ويصب هذا الجدول قرب السماوه في ذلك النهر ثانية وقد كان ذلك الجدول ، الى قبل بضع سنوات صالحاً للملاحة ، إلا أن مياهه الآن لا توجد إلا عندما يكون مستوى الماء في الفرات ، عالياً للغاية . وقد كان في هذا الموسم جافاً تماماً .

والرماحية مدينة مشيده على نطاق واسع ، وهي مؤلفة من حوالي اربعمئة بيت . وهي محاطة بسور عال ، الا أنه كسور البصره والقرنة ، يتألف فقط من طابوق غير مفخور ، وهو بالاضافة إلى ذلك ضعيف والعناية به مهملة ، بحيث يستطيع المرء أن ينفذ من خلاله أحياناً . هنالك جامع مهم وحمام عام بديع جداً وأغلب الدور مشيده بطابوق غير مفخور والقليل منها فقط ، مشيد بالطابوق المفخور . ويعتمد السكان في غذائهم الاساسي على الزراعة وعلى بساتين التمور العائده لهم . ويروى أنهم موفورو الغنى ، إلا أن ذلك ربما كان قياساً على فقر الفلاحين فى قرى تلك المنطقة . يستوفي شيخ عشيرة الخزاعل رسماً كمركياً طفيفاً في الرماحية . والظاهر أن الشيعة هم المتفوقون هناك .

وقد سكنت في الرماحية عند أحد السنة حيث كنا مرتاحين هناك .
أما صاحب الدار ، فكان ملا في أحد الجوامع مما جعله زميلا لرفيقي في الرحلة.
وقد جلس معنا في غرفة مكشوفة الواجهة لينصت الى بعض الأخبار ،
وبذلك لمست الفارق بين عاداتنا وعادات المسلمين ، فقد جلست والدة زوجته
في الخارج على الجانب ، بينما كانت زوجته التي لم تكن بعيدة عنا منهمكة
بطبخ الرز .

وفي سياق الأمور الأخرى ، بينت له أن الأوربي الذي يزوج ابنته ،
لا يمتنع عن استيفاء المهر من صهره فحسب ، بل على العكس من ذلك ، فانه
يمنحه مبلغاً طيباً من المال ، إذا ما كان غنياً . وبذلك يتمكن من تأمين حياة
رغيدة له . وقد حظيت هذه العادة باعجاب صاحب الدار كما سأل أم زوجته
عما اذا أدركت ما كنت أرويه أم لا ، ثم استطرد قائلا : « لم تعاملوني بمثل
هذه المعاملة يا أماه ، فقد وجب علي أن أدفع المبلغ لكم قبل إعطائي
إبنتكم . . . . . . » وبعد أن تحدث الرجل على هذا المنوال مدة طويلة ،
قالت الأم أخيراً : « آه يا بني ، لو أعطيتكما حقلي وبستان النخيل التي
أملكها ، فمن أين لنا أن نعتاش أنا وابنتي ؟ » . وقد تابعت كلامي على أثر
ذلك قائلا ، أنه لا يجوز بموجب قانوننا لأي رجل ما أن يكون متزوجاً
بأكثر من إمرأة واحدة ، وإلا كلفه ذلك حياته ، أما الأموال فتكون
مشتركة ثم تأول بعد ذلك تارة اخرى الى الاطفال . وقد إجتذب هذا الامر
المرأة العجوز إلى التحدث فقالت : « هل سمعت ما قاله السيد يابني ؟ فلو لم
تكن لك زوجة أخرى غير ابنتي ، ولو كنت واثقة من أنك لن تطردها ،
فكم كنت سأرغب في أن امنحك عن طيب خاطر بيتي واملاكي جميعها .

وقد اشتركت في الحديث أيضاً المرأة الشابة التي كانت تتظاهر باستمرار بعدم إصغائها لهذه الامور جميعاً، فقالت: « آه يا زوجي، كيف تطلب أن تمنحك أمي بيتها أيضاً! وبذلك تقوم أنت باعطائه بأجمعه لنسائك الاخريات اللواتي تحبهن أكثر مني، أذ لا أراك إلا فيما ندر». وقد استمرت الام والابنة في الحديث معاً، حتى سألت أخيراً صاحب الدار عن عدد زوجاته فأجابني بأنهن أربع. وعلى حد قوله، فان خدمته لم تتطلب إلا عناء قليلا، كما أن لكل من زوجاته بيت وحديقة تعيش هي واطفالها عليها. أما هو فليس له بيت، كما أنه لا يحتاج اليه، إذ يجد الراحة والطعام لدى كل منهن. وكسائر المسلمين الذين يتمدحون لي تعدد الزوجات، لم يشأ ان يجيبني بصراحة، عن سؤالي له عما اذا كانت حياته الآن، وله أربع زوجات، أكثر راحة وسعادة مما كانت عليه، يوم لم تكن له أكثر من زوجة واحدة.

ملاحظات عن مشهد علي

وفي ٢٢ كانون الاول سافرت مدة سبع ساعات أو ما يقارب خمسة اميال من الشمال الغربي متجها نحو الغرب ، الى مشهد علي . فصادفت في طريقي هذا كثيراً من الجداول الجافة والقبب « KUBBETS » الصغيرة . كانت الأخيرة تسد حاجة الفقراء من السكان الى بيوت العبادة، وذلك لفقدان الجوامع المنظمة . ولكن الحقول هناك، معمورة أكثر مما في الجانب الآخر من الرماحية . وقد أخذ مشهد علي اسمه هذا ، من جامع فخم كان قد شيد تبجيلا لعلي « رض » خليفة المسلمين الرابع ، ويزوره الشيعة من كافة الممالك باحترام بالغ ، كما يزور مكة اصحاب المذاهب الاسلامية كافة. ويرغب الشيعة في زيارة هذه المدينة التي يعدونها مقدسة لديهم، حتى بعد وفاتهم . لذا يجلبون موتاهم اليها لا من الرماحية ولملوم والحلة وبغداد والمدن المجاورة الاخرى فحسب ، بل في الوقت نفسه ، من إيران والهند أيضاً . وكما يتحدثون في الزبير او البصرة القديمة ، فان احد الاموات، وكان قد مضى عليه سنة مدفوناً في الارض ، قد اخرج اخيراً من جديد ، لارساله إلى هذه المدينة . وهذا الوضع يؤمن للمدينة مورداً مهماً . وقد صادفت في طريقي من الرماحية الى مشهد علي ، اربعة جنائز ، ومنها الى الحلة خمسة جنائز ، وعندما تساءلت عما اذا يمكننا أن نخمن عدد الموتى الذين يجلبون إلى هذا البلد من الاماكن الاجنبية الاخرى ، بسبعة اموات في اليوم الواحد ، اجابوني بأن هذا العدد

لا يعد مرتفعاً . واستناداً الى هذا التخمين، فان عدد الاموات الاجانب الذين يدفنون هناك سنوياً ، يتجاوز الالفين . ويحصل كل من يدفع مبلغاً كبيراً ، على قبر قرب جامع امامه أما من يدفع مبلغاً متوسطاً ، فيمكن دفنه ايضاً ضمن سور المدينة . اما من لم يرغب في دفع اكثر من اربع الى ثماني « STUVER [١] » ، فيعين له محل فى خارج المدينة . ولا اظنهم يدفنون الموتى داخل الجامع نفسه . وعلى كل حال، لا يصادف في الجوامع الاخرى للمسلمين ان يدفن فيها غير مؤسسيها او زوجاتهم وابناءهم احياناً . وعلى العموم ، لا يود المسلمين أن تكون مقابرهم داخل اسوار المدينة . (٢)

والشيعة يشيرون الى ان قبر الامام علي (رض) هناك فى الجامع .

وقد نتج عن هذا الأمر ، أن شيدت آنذاك مدينة في ذلك الموضع .

وهي تقع فى منطقة مجدبه خالية من النبت كالسويس وجدة . إذ لا تتوفر المياه فيها . أما المياه التى يحتاج اليها هناك للطبخ والاغتسال ، فتصل بواسطة قنوات تمتد تحت الارض أما الماء الصالح للشرب ، فيجلب من مسافة ثلاث ساعات ، محملا على ظهور الحمير . وتكون الأرض فى إحدى جوانب المدينة مشبعة بالكلس بحيث يمكن احراق التربة بعد خلطها بالسماد الجاف ، لغرض

---

(١) يعادل الـ STUVEN او الـ STUBER ٥ر٠ ماركاً المانياً ،وقد كان ستون STUBER يعادلون « تالير المانى » واحد ، وكان الـ « تالير » الالمانى يعادل بدوره ثلاث ماركات — المترجم —

(٢) كثير من قبور المسلمين موجودة داخل اسوار المدن — المترجم —

الحصول على الكلس الصالح للبناء . وحيث أن الكلس هناك زهيد الثمن جداً ، بينما يكون الخشب مرتفع السعر للغاية ، فان البيوت جميعها مشيدة بالطابوق المفخور والمبنى بالكلس ، بل أنها معقودة بشكل قبب ، مما يجعلها شديدة المقاومة . أما الجانب الآخر من المدينة ، ففيه منطقة واسعة منخفضة يكسوها الملح ، ويسميها العرب بالبحيره أو بحر النجف ايضاً . وكما يؤكدون فان هذه البحيرة يجب أن تكون بحيرة « ساوة » التى جفت عند ولادة سيدنا محمد « ص » «١» .

وسكان هذه المدينة ، بعضهم من السنه كما أن البعض الآخر من الشيعة . وفي غير هذه الأمكنة يكون الامتعاض بين اتباع كل من هذين المذهبين على أشده ، بحيث أنه إذا ذهب سني الى ايران ، أو شيعي الى مدينة تركية لوجب عليه على الاطلاق ، أن يؤدي صلاته بموجب العادات المحلية ، لكي لا يصيبه الأذى من الأهالي . أما في مشهد علي ومشهد الحسين ، فان العلاقات بين أتباع المذهبين حسنة إلى حد لا بأس به . إذ يعيش قسم كبير من السنة هناك على الشيعة ، لذا يلزم عليهم أن يطمئنوهم نوعاً ما . وعلى الشيعة أيضاً أن يلتزموا جانب الهدوء لكي لا يتركوا الفرصة لباشا بغداد ، ان يتقاضى من الايرانيين مبالغ أكبر عن منحهم الحرية في زيارة مرقد الامام الاول . وهناك ما يقارب خمسة آلاف زائر سنوياً ، يفدون لزيارة مرقدي الامام

---

(١) ترجمة تاريخ العصور الحديثة العام لسملر ـ القسم الاول الباب ١٤ ـ
ـ المؤلف ـ

علي والإمام الحسين . وليس لاداء مراسيمهم أيام معينة كما هي الحال مع الحجاج الى مكه . غير أن الشيعة يعتقدون أن دعاءهم أكثر استجابة ، في أشهر معينة ، وهم لذلك ينتخبون السابع والعشرين من شهر رجب ، وشهر رمضان ، والعاشر من محرم ، كأنسب الايام . وقلما يسمع هناك من يقسم بأسم الأله ، بل أنهم جميعاً يقسمون بأسم علي ، كما هي الحال في مشهد الحسين إذ يقسمون بأسم الحسين ، وفي نخا إذ يقسمون بأسم شاذلى (١) ، حيث يسمع فى كل لحظة من ينادي بخشوع : « ياعلي ياشهيد ، يا حسين يا شهيد يرحم الله ذكراكما . »

إن الشكل الخارجى لمدينة مشهد علي ، يشبه كثيراً مخطط مدينة القدس الحديثة ، كما أنها تقاربها فى السعة أيضاً . وقد رسمت مخططها . والمدينة كلها محاطة بسور ، ولها فى الوقت الحاضر بابان فقط : « باب المشهد » المؤشر عليه برقم (١) و (باب النهر) المؤشر عليه برقم (٢) ، أما (باب الشام) وهو الباب الثالث والمؤشر برقم «٣» ، فقد سد بحائط . وسور المدينة مخرب الآن ، بحيث يمكن الولوج الى المدينة من عشرين موضعاً بكل سهوله . وفيما عدا الجامع الفخم المشيد على قبر الامام علي ، والمؤشر في المخطط برقم «٤» هناك ثلاثة جوامع صغيرة أخرى . وقد تكونت التلال المؤشرة برقم «٥» من الاوساخ التي نقلت على الحمير من شوارع المدينة ، كما هى الحال مع التلال الكبيرة

---

(١) الجزء الاول من الكتاب ص ٤٤٠ .. المؤلف ..

المتعددة قرب القاهرة [١] ويشير الرقم «٦» الى المقبرة العامة ، أما الرقم «٧» ،فيعين المنطقة التي يجلب فيها الماء الى المدينة من تحت الارض . وا كثر ما يلفت النظر في هذه المدينة ، هو الجامع المشيد فوق قبر الخليفة والامام علي (رض) وقد رسمت مظهره بقدر ما ساعدتني به الظروف ، في اللوحة المرقمة ٤٣ تحت الحرف (آ) . وليس هناك في أي مبنى بالعالم سقف أثمن قيمة من هذا السقف . ذلك السقف الذي انفق عليه نادر شاه، هادم ايران . كم من أعمال يقوم بها أمثال هذا الطاغية ، لذر الرماد في عيون الشعب ! لم يكن في قيامه بتلبيس القبة الكبيرة وسطح المنارتين القائمتين عليها بالنحاس بشيء خارق للعادة ، ولكن الأمر أصبح كذلك ، عندما استعان بالنار في طلي كل هذا النحاس بالذهب عن سعة ، حتى أن اللوحة المربعة الشكل ذات ٢ ر ٨ اصبعاً تكلفته تومان ذهب أو ما يقارب (١٠) تالير الماني . «٢»

---

(١) الجزء الاول من الكتاب ص ١١٢ المؤلف

(٢) يبحث محمد مهدي خان في كتابه « تاريخ نادر شاه » الترجمة الالمانية صفحة ٣٧٤ عن هذا الموضوع بما يلي : إن تمسك نادر شاه بدينه ، دفعه الى تذهيب قبة الجامع المقدس في مشهد علي أو النجف الأشرف ، وقد بلغت تلك المصاريف مبلغاً طائلا . وقد اصلحت جدران هذه البناية المقدسة بسخاء من قبل صاحبة الجلالة الملكة كوهرشاد بيكم التي أرسلت لذلك مئة الف نادري « وهو على أغلب الظن ربيه ، اي ما يقارب =

وقد أضفى هذا الامر منظراً رائعاً ، خاصة عند سطوع أشعة الشمس عليه . وبما أن البناية ليست مرتفعة فحسب ، بل أن المدينة كلها مشيده على مرتفع ، لذا فان القبة المذكورة تظهر من مسافة خمسة الى ستة اميال ألمانية وفي أعلى القبة كف مفتوح يمثل كف علي ، في الوقت الذي يشاهد فيه عادة على الجوامع التركية ، هلال أوعمود فقط ، وتوجد حول الجامع ساحة خالية يقام فيهاالسوق يوميا ، بينمايوجد امامه شمعدان ضخم للغاية ذومصابيح متعددة . والكل محاط بالابنية التي يسكن فيها كبار خدم الجامع . اذ ليس من الممكن أن يكون لكل من يخدم هذا الجامع محل هناك ، حيث كما اكدلي ، ان عددهم يتجاوز المائة . وبينهم عدد كبير من الدراويش الفقراء الذين يجلسون امام المدخل ، يدعون للزوار بالخير ، مقابل عطاء بسيط .

وقد تجرأت كثيراً باقترابي الزائد من محل يقدسه للغاية الشيعة والسنة على السواء . وربما طلبوا مني اعتناق الاسلام لو دخلت في الجامع . ولم ارغب ان يكلفني حبي للاستطلاع مثل هذا الثمن الغالي . وقد اكد لي في هذه الآونة ، زميلي في الرحلة وكثير من الشيعة . أن في داخل الجامع من الأشياء

= ٦٦٦ و ٦٦ من التاليرات الالمانية » من خزينتها الخاصة كما أرسلت مبخرة مزينة بأحجار كريمة وآنية من الذهب الخالص ليحرق فيها البخور داخل البيت المقدس . . . . وقد دفعت السلطانة « راضية بيكم » أبنة شاه حسين « ٢٠٠٠ » نادري «وهو مايقارب ١٣٣٣ من التاليرات الالمانية » بواسطة مدير خزينة بلاطها ، وذلك لترميم جامع في كربلاء «مشهد حسين» .

— المؤلف —

الثمينة ما يدعو إلى العجب . وهناك ايضاً القبة المذهبة بكثافة ، والتي تظهر عليها الآيات القرآنية بحروف كبيرة مطعمة بالميناء ، وتوجد على الجدران كتابات مخطوطة بحروف كبيرة مذهبة ، وليس على البقاع ، عدد كبير من الشمعدانات المصنوعة من الفضة فحسب ، بل عليها ما هو مصنوع من الذهب الخالص ، ومزين بالاحجار الكريمة . وبصفة خاصة ، يبحث باعجاب عن قيمـــة الخنجر ، الذى هو من نوع الخناجر التى يتمنطق بها الهنود . وهو معلق على ضريح الامام المحاط بالجدران . وكما يقال ، فان هذا الخنجر مزين باحجار ثمينة لا تقدر بثمن ، وكان قد أهداها خليفة من (AURENGZEB) اورنك زيب قبل منذ بضع مئات من السنين .

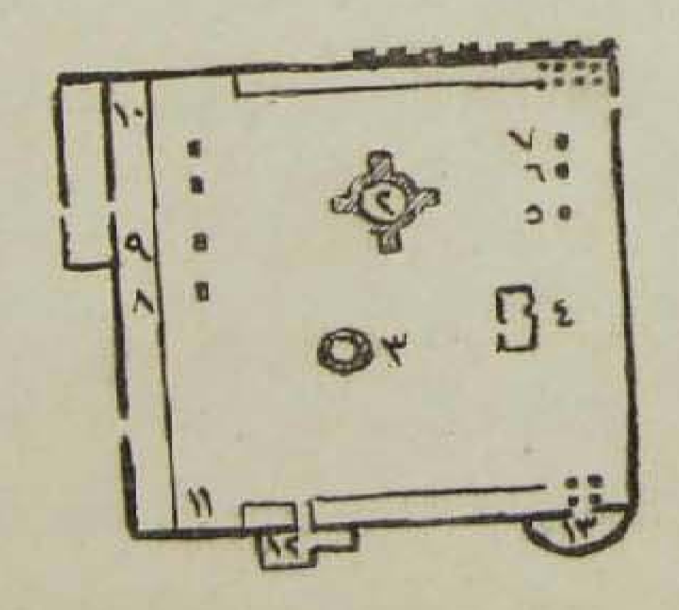
وهذا الكنز الكبير بيد المتولى (ناظر الجامع) والحاكم . ويرسل باشا بغداد أيضاً وفق العادة ، ضابطاً ذا رتبة عالية في كل عام الى هناك ، عليه أن يتحقق من وجود كافة تلك القطع .

وتقع مدينة الكوفة الشهيرة سابقاً ، على مسافة ما يناهز خمسة ارباع الميل من مشهد علي ، باتجاه الشرق فالشمال الشرقي ، في منطقة منخفضة خصبة . ولا يزال مجرى (DSIARRI ZAADE) كرى سعده يظهر للعيان للان (ص ٢٢٣ PALLACOPAS) . الا ان المياه في الوقت الحاضر لا تجري فيه ابداً . اما الاراضي المجاور فهي جميعها قفراء . وليس في المدينة احد من السكان بعد . والشيء الذي يستدعي الانتباه هناك في الوقت الحاضر ، جامع كبير جرح واستشهد فيه الامام علي . وقد تبقى منه النزر اليسير جداً باستثناء الجدران الاربعة . ويظهر له مخطط في اللوحة ٤٢ تحت الحرف « ب » .

مخطط النجف الاشرف - رسمه نيبور سنة ١٧٦٥



مخطط مسجد الكوفة كما وضعه نيبور سنة ١٧٦٥



ويسمى الباب المؤشر بالرقم «١» « باب الفيل » . اما الرقم «٢» فيشير الى بناية تتوغل عميقاً فى الارض ، ولكنها غير عالية ، ومن المحتمل انها كانت صهريجاً للمياه . ويطلق عليها العرب اسم ال « سفينة » . وعلى ما شاء ان يؤكده لي دليلي ، وكان من سكنة مشهد علي ، ويعمل دليلا لارشاد الزوار الايرانيين إلى الآثار التي تستحق المشاهدة هناك ويرجو إقرار كونه من احفاد قدماء الكوفيين ، فان سفينة نوح إستقرت على الارض في هذه البقعة .

تسمى البناية الصغيرة الدائرية الشكل والمؤشرة بالرقم (٣) ، (سقاخانه «*SIKKE KHANE*» ، حيث يتجلى من عنوان هذا المحل ، أن مياه الشرب ، كانت توزع منه سابقاً ، ولكنه ليس بالقديم . اذ يظهر على بابه حجر نقشت عليه كتابة عربية تطابق خط الكتابة العربيه المستعملة حالياً ، بينما لم تكن هذه الكتابة معروفة بعد فى عهد الامام علي . وقد شيدت بناية صغيرة فى الموضع الذى اعتاد الحسن والحسين «رض» اقامة صلاتهما فيه ، وهي مؤشرة بالرقم «٤». وهناك محراب في أقصى جدرانها الخلفية ، يقع فى الموضع الذي كان من المفروض أن الامام موسى الكاظم قد صلى فيه . وتسمى الأعمدة المؤشرة بالارقام ٥ ، ٦ ، ٧ بمقام سيدنا عيسى فمقام سيدنا موسى ومقام ابراهيم الخليل . لانه كما يظن المسلمون ، فان عيسى وموسى وابراهيم عليهم السلام ،قد صلوا في هذه الامكنة . ويشير الرقم ٨ الى الموضع الذي كان من عادة الأمام زين العابدين الصلاة فيه . أما الرقم ٩ ، فهو الموضع الذي يفرض أن نوحاً وعلياً قد صلوا فيه وهناك أيضاً منبر صغير بسلمه

الذي يبلغ ارتفاعه عشرة أقدام. يشير الرقم «١٠» الى الموضع الذي شيد فيه نوح أول بيت له بعد مغادرته السفينة، ويشير الرقم «١١» إلى قبر شخص يسمى جعفر ابن معمر «١» اما الرقم (١٢) فهو ضريح مسلم (ابن عقيل IBN AKEL) ابن أخ الخليفة علي وقد استشهد مع هاني بن عروة الذي أضافه في داره [٢] وقبر الأخير معين بالرقم «١٣» ولم يشيد هذان المسجدان، الا في الفترة الأخيرة من تاريخ الشيعة. وذلك لأعتبارهم «مسلماً وهانياً وكل من ضحى بحياته في سبيل علي وأحفاده، من الشهداء. وفي داخل الجدران المحيطة بذلك الجامع، توجد بضعة أعمدة مرتبطة مع بعضها بالجدران، الى جانب حجرة صغيرة لتأمين راحة الزوار الذين يرغبون المكوث هناك بضعة أيام.

وقد رأيت في مسجد مسلم كتابة تأثرت معالمها قليلا بمرور الزمن، يفهم منها أن شخصين هما (محمد ابن محمود الرازي) و(أبو المحاسن ابن احمد التبريزي» قد شيدا ذلك الاثر في عام ٦٨١ هـ والكتابة مدونة بالشكل التالي:

هذه العمارة مشهد... مسلم بن عقيل ابن ابى طالب عليه السلام فى ايام الصاحبين المخدومين على الحق والدين... وشمس الدين ولدي محمد ابن محمود الجونى اعز الله انصار دولتهما بتولي ارقاب عبيدهما محمد ابن محمود الرازي وابى المحاسن ابن احمد التبريزى عفى الله عنهما في شهور سنة احدى

---

(١) مقام جعفر بن محمد الصادق.

(٢) ترجمة تاريخ العصور الحديثة العام لسملر القسم الاول، الباب ٤٢٨.

— المؤلف —

وثمانين وسبعمائة وصلى الله على سيدنا محمد النبي وآله »

وهناك على قبر معمر ابن جعفر (١) المؤشر في اللوحة «٤٣» بالحرف « آ » ، كتابة كوفية ، وتكتب تلك الكتابة بالحروف العربية المستعملة في الوقت الحاضر ، على النحو التالي : « بسم الله الرحمن الرحيم قل هو الله احد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا احد هذا قبر (٢) جعفر بن معمر رحم الله وغفر له صلى الله على محمد وعلى آل محمد » .

أما الكتابة التي وجدتها على جدار هذا الجامع والمؤشرة بالحرف ب ، فلا تحتوي على شيء آخر غير الآية ٢٥٦ من السورة الثانية . ولكن بما ان الدكتور (REISKE) أبدى رغبته في أن أخلف وراثي كافة الكتابات الكوفية التي قمت باستنساخها ، لفائدة الذين يعنون بدراسة هذه الكتابة ، فانني لم أودعه هذه الكتابة فحسب ، بل أعطيته كلا من الكتابتين الصغيرتين المؤشرتين بحرفي « ج » و « د » وفي بغداد نماذج كثيرة للكتابات المزركشة الحديثة للخطاطين العرب ، مخطوطة بالأحرف الكوفية في الادوار الأخيرة .

وقد شيدت زوجة سليمان باشا ، عادلة خاتون ، التي توفيت منذ بضعة سنوات ، جدران هذا الجامع القائمة باتجاه الشمال الغربي ، فرممت بعضها وأعادت تشييد البعض الآخر . كما أمرت بانشاء بناية صغيرة ، ذات قبة واحدة ، قرب هذا الجامع المتهدم ، إجلالا لأبنة نوح عليه السلام . وقد دلوني على موضع هناك ، يقال أن جثمان الخليفة علي قد غسل فيه . وكما أفاد

---

(١) يظهر انه مقام (جعفر بن محمد) راجع صفحة ٨٤ جعفر بن معمر

(٢) لعله مقام (اي موضع صلاة)

دليلي ، فان لهذه البناية حجرة صغيرة ، تقع بالضبط في الموضع الذي كانت أبنة نوح ، تخبز الخبز فيه . أما البناية الصغيرة الأخرى، فقد أهديت لبنات علي الثلاث ومن المحتمل انهن مدفونات فيها . وقد دلوني على جامع اخر يبعد عن الجامع الكبير بما يقارب ربع الساعه باتجاه الشمال الغربي، يطلق عليه اسم (SAHHELE)(١) او صاحب الزمان او مهدي وقد رووا لي عن ذلك حكاية مفصلة ، لم افهم منطوقها بالضبط . ولا تصادف عدا هذه اية اشياء آخرى في الكوفة ، غير عدة تلال صغيرة تخلفت من أنقاض الأبنية . ويتبين من ذلك ، أن الابنية هناك ، مشيدة بالاحجارة المفخورة على الاكثر ، لذا فأنها أشد مقاومة من أبنية البصرة . وقد يعثر أحياناً على بعض المسكوكات القديمة تحت هذه الخرائب ، ولكنهم لا يعيرونها أية أهمية . وحيث أن المسلمين لا يجمعون مثل هذه المجموعات، كما أنه ليس من عادة الأوربيين زيارة مشهد علي « على حد علمي لم يصل للآن أي اوربي الى هناك » لذا فان أي سائح لن يتوقع شراء مثل هذه الأشياء هناك .

لم يشاهد خادمي شيئاً أكثر الفاتاً للنظر في الكوفة من قطعة عمود ، يروى أن الأمام علياً ذاته بشخصه الكريم، قد حملها معه من البصرة الى هناك . وقد كان هذا العمود داخل الجامع الكبير قرب مبنى السفينه . وكما يقال ، فانه يمتاز بأن من لم يستطع احاطته بأكمله، فان أمه لم تكن مخلصة لأبيه . وقد أراد عامة الناس بأجمعهم ، ممن كانوا معي هناك في نفس الوقت اجراء هذه التجربة ليعرفوا هل ان هذا المدعو أباهم ، والذي أشارت بذلك أمهاتهم

«١» السهلة أو مسجد سهيل .

اليه ، هو ابوهم حقاً . وقدعاد جميعهم مستبشرين ، الاسائس للخيل، أرادوا اقناعه جميعاً بأن العمود أخذ في الأتساع بسببه . وقد كان من المضحك جداً مشاهدة الجهد الكبير الذي بذله الرجل البائس ، لأحاطة العمود بأكمله . وكان عقلاء المسلمين ، ينظرون الى هذه التجربة على ماهيتها ، اي انها كانت تضية لوقت الفرد الاعتيادي .

رحلة من مشهد علي الى الحلة

وفي الخامس والعشرين من شهر كانون الاول سافرت من مشهد علي الى « كفيل » (١) الواقعة على مسافة اربع ساعات ونصف باتجاه الشمال ، ثم منها الى الحلة الواقعة باتجاه الشمال الى الشمال الشرقي ، على البعد نفسه ، وهكذا يبلغ مجموع المسافة بين المدينتين تسع ساعات او سبعة اميال المانية ، إن كفيل هو اسم « حسقيل » (١) باللغة العربية ، ولا يزال مئات من اليهود سنوياً يزورون قبره هناك . الا انه ليس لهذا النبي خزائن من الفضة او الذهب أو الاحجار الكريمة ، ويرجع ذلك الى أن اليهود ، حتى ولو رغبوا أن يقدموا له مثل هذه الهدايا لما تركها المسلمون لهم مدة طويلة ، وعلى اليهود أن يكونوا ممتنين للسماح لهم وتمكينهم من زيارة هذا المكان ، ولا يشاهد في مسجد النبي شيء آخر ، غير قبر محاط بالجدران تحت منارة صغيرة . وصاحبة أو حامية هذا المحل المقدس عائلة عربية لها هناك جامع صغير وجميل ذو منارة واحدة . ولم تكن تدفع للاتراك أي ضريبة عن الاراضي المجاورة بسبب هذا النبي . وبالأضافة الى ذلك ، كانت هذه العائلة تكسب الكثير من المسافرين الذين يرغبون بكل سرور في الاستراحة هناك بعض الوقت ، وبحاط قبر حسقيل

«١» الكفل .

«١» ذو الكفل هو اسم حزقيال .

والجامع وبضعة مساكن عربية كلها بسيطة بسور قوي يرتفع الى علو ثلاثين قدماً ويبلغ محيطه ٢٥٠ خطوة مضاعفة (مايقارب الف ومائتين قدماً). وقد شيد هذا السور للمرة الأولى، على نفقة رجل يهودي يسمى سليمان يسكن في الكوفة ومن المحتمل أن اليهود أنفسهم، هم الذين يتولون العناية به على نفقتهم، لأن فائدته تعود عليهم أكثر مما على غيرهم. وليس من النادر أن يفد العرب في الموسم الذي يأتي اليهود فيه الى هناك، ليباركوا لهم على سلامه الوصول، وأكثر من ذلك لطلب الهدايا منهم، ولو تمكن اليهود أن يتفاهموا مع العرب بسلام، لاستفادوا من ذلك كثيراً، حيث أن اليهود جبناء بدرجة أن بضعة افراد من المسلمين، يتمكنون من ارهاب عشرة أو حتى عشرين ضعفاً من اليهود. ولهذا أصبح العرب في بعض الاحيان وقحاء جداً: وعندئذ لم يكن لليهود سبيل آخر للنجاة" غير أن يغلقوا أنفسهم في قلعة صغيره" أو خان كما كانوا يدعونها. ولم يتجاسر اليهود على اطلاق النار على أعدائهم من هناك، حتى لو كانوا يمتلكون البنادق ويعرفون كيفية استعمالها، اذ أن ما يسفكه اليهود من دم المسلم، لا يدفع عنه غالياً الى حد يدعو الى العجب فحسب، بل أن العرب لا يألون جهداً ايضاً من ترقب قافلتهم في فرصة أخرى ومهاجمتها بل نهبها. لذا على الزوار البقاء في الخان ريثما ينجدهم من الحصار متصرف الحلة أو باشا بغداد " اذا كان عدد الأعراب كبيراً، وهذا يكلفهم دائماً أكثر مما يطلبه العرب منهم. وفي الحالة الأخيرة" يضطر العرب على الانسحاب بخفي حنين أو ببعض الهدايا البسيطة، الأمر الذي يكون انذاراً لهم بعدم التمادي كثيراً في الوقاحة مع اليهود مره" اخرى.

ويصادف المرء فى الطريق بين الكفيل [١] والحلة، عدة انهر صغيرة، جميعها تقريباً جافة فى هذا الموسم. ولا يشاهد ما يستلفت النظر غير بيت هنا أو هناك، لأحد الفلاحين وقد بني بالطابوق غير المفخور، وقبب صغيرة مختلفة على قبور صغار اولياء المسلمين.

---

(١) الكفل

ملاحظات عن كربلاء

بقيت فى الحلة في ٢٦ من الشهر. وفي اليوم التالي ، شرعت فوراً بالسفر إلى مشهد الحسين ، المدينة التي شيدت في موضع مشهور لدى المسلمين بأسم « كربلاء » . وتقع على مسافة ما يقارب السبع ساعات او خمسة أميال المانية من الحلة باتجاه الشمال الغربي ولا يشاهد على طول هذا الطريق شيء آخر غير القرية المسماة (*TOMASIE*) (١) . وهي قرية كبيرة بكثير من بساتين النخل ، يجب أن يكون الشاه عباس (٢) اول من عمرها .

لم تكن منطقة كربلاء مأهولة بعد ، عندما فقد الحسين والكثير من اقاربه واصدقائه ، حياتهم هناك (٣) ، غير ان تلك الموقعة ، سببت إعمار هذه المنطقة ، حيث جلب الماء من الفرات الى هناك ، وتشاهد هناك في الوقت الحاضر غابة واسعة للنخيل (١) . تكون المدينة التي في داخلها اوسع

---

(١) (الطهماسية)

(٢) لعله يقصد الشاه طهماسب

(٣) ترجمة تاريخ العصور الحديثة العام لسملر ـ الجزء الأول ص١٩٥ـ .

ـ المؤلف ـ

(١) لهذا السبب يطلق محمد على خان اسم « الحديقة » على هذا المكان ، تاريخ نادر شاه ـ الترجمة الألمانية ص ٣٧٤ . — المؤلف —

من مشهد علي ، كما أن عدد سكانها اكثر منها ايضاً . إلا أن بيوتها ليست متينه نسبياً ومعظمها مشيدة فقط بالطابوق غير المفخور ، كما هي الحالة في البصرة والحلة . وهناك خمسة ابواب لسور المدينة، ولكن السور هو الآخر، مشيد فقط باللبن والطابوق المجفف في الشمس ، وقد تخرب بأجمعه الآن .

وأكثر ما يستدعي الانتباه هناك ، هو جامع كبير يضم في داخله مسجداً يسميه الشيعة بمذبح الحسين وقد شيد هذا المسجد في عين المكان الذي داست فيه الخيول على حفيد محمد (ص) هذا ، وقد دفن فيه .

وقد وجدت أن محاوله وضع رسم تخطيطي لهذا الجامع ، أخطر عاقبة من سابقه في مشهد علي . ولم أتمكن من التجاسر بالدخول الى صحنه حتى في وضح النهار . وقد قمت في هذه الاثناء بالذهاب الى هناك ليلا مرتدياً عمامة تركية ، برفقة زميلي في الرحلة . وحيث أن كافة الأطراف كانت مضاءة احتفالا بالعيد ، فقد رسمت بعد عودتي رسماً لها ، يوجد في اللوحة ٤٢ « ج » ، ليعطي للقاريء فكرة على الأقل عن طرز إنشاء هذا الجامع . وجداره من الأمام يحفل بالنوافذ وهو يشكل منظراً غريباً في هذه البلاد ، التي لا يشاهد فيها زجاج النوافذ . والواقع انه من المحتمل أنها كانت هدية من إيراني أرسلها الى هناك من معمل في شيراز . وتقوم قبه عالية خلف البناية الامامية ، حيث الامام حسين مدفون تحتها . وتحيط بها اربع منارات صغيرة ، وعلى مسافة ابعد منها في الخلف تقوم قبة اخرى اوسع منها عرضاً بكثير ولكنها ليست عالية للغاية ، لذا لم اتمكن من إظهارها في الرسم من تلك الجهة . وهذه الأبنية جميعاً كائنة في ساحة خالية محاطة من كافة اطرافها الاربعة ، بمساكن العلماء والدراويش . وهناك امام المدخل الرئيسي

للجامع ، شمعدان نحاسي كبير جداً ذو عدة مصابيح ، كما هي الحال في مشهد علي . ولا يمكن مشاهدة اي ذهب في الخارج، إلا ان هناك، كما يقال، عدة حاجات ثمينة قرب ضريح الحسين ، ولا يمكن مقارنتها بأي شكل من الاشكال ، مع الحاجيات الموجودة قرب ضريح الامام علي « رض » .

ويشير الشيعة هناك ايضاً ، الى مقابر كثير من اقرباء الامام الحسين واصحابه ، ممن فقدوا حياتهم في الحرب التي جرت في كربلاء وهؤلاء جميعاً يعتبرهم الشيعة من الشهداء وقد شيدوا جامعاً كبيراً داخل المدينة ، إجلالا للعباس الذى كان اخاً للحسين من ام اخرى وقد تحدثوا الي بأمور كثيرة عنه ، ولكنني اود ان اذكر منها الرواية التالية فقط :

حين اشتد العطش بالحسين ، أمر العباس أن يحفر في الأرض في الموقع المسمى « *CHEIMA KAA* » خيمكاه أو المخيم ، والذى سنبحث عنه مباشرة بعد انتهاء هذا الموضوع . فلما لم يجد العباس الماء هناك ، ذهب ممتطياً جواده إلى محل يبعد بساعة واحدة باتجاه الشمال ، حيث ملأ قربته فيه . وفي طريق العودة ، التقى بفريق من الاعداء ، حاولوا أخذ الماء منه فبتروا إحدى يديه في تلك المحاولة . فتناول الماء باليد الاخرى التي بتروها أيضاً . وأخيراً أمسك العباس القربة بين أسنانه، إلا أن سهماً أصابها آنذاك، جعل الماء ينسكب عن آخره . فعاد ثانية دون أن يتوفق في إرواء غليل أخيه المحبوب .

ومن الاماكن التي تستحق الانتباه ، والتى يزورها الزوار الوافدين الى هناك ، هو الموضع الذي سقط فيه جواد الحسين بصاحبه . ويقع هذا الموضع خارج المدينة ، على الطريق المؤدى الى مشهد علي . ويقوم عليه بناء

صغير يأمه الزوار . وقد روى لي دليلي بصورة مفصلة ، ما تحدث به الأمام لعائلته هناك ، وعن ماهية الأوامر التي أصدرها إلى ضباطه ، ولكنني لا أرى لزوماً فى ذكرها جميعاً . وقـــد ضرب خيمته أخيراً قرب (*CHEIMA KAA*) (١) الموضع الذى اصبح فى الوقت الحاضر حديقة كبيرة فى الطرف الآخر من المدينة . ويشاهد الآن حوض كبير فى نفس الموضع الذي لم يتمكن العباس من العثور على الماء فيه ، وبموجب إعتقاد الشيعة فقد استمد هذا الحوض مائه بواسطة المعجزة ويعد هذا الحوض مقدساً لديهم ، وفى هذه الحديقة الآن ، بناية مخربة عن آخرها ، تقع بالضبط فى الموضع الذي ضرب الحسين فيه خيمته . وتقع قربها بنايه صغيرة قليلة الأرتفاع دفن فيها القاسم العريس و كثير من الشهداء الآخرين ، وأما صاحبة دارى التي كانت ارملة عجوز ، متمسكة بشيعيتها فقد سرت كثيراً لدى سماعها بزيارتي قبر القاسم المشار اليه . فقد كان هذا الأخير وليها المفضل وقد تحدثت إلي ، والدموع تملأ عينيها ، عن أن هذا الشاب ، الشجاع كان على أهبة الزواج ، أي أن القاضى كان قد عقد قرانه بحضور الشهود ، حين استشهد عمية الحسين والشهداء الآخرين ، في النهار الذى سبق ليلة زفافه ، وقد كانت هذه المرأة الطيبة القلب ملمة بكل كلمة تبادلها كلا المحبين بينهما ، قبيل نشوب القتال .

---

(١) المخيم .

وقد كنت هناك عند بدر شهر رجب بالضبط ، حيث أخذ مئات الزوار يتوافدون الى هناك حوالي هذه الآونة ليقضوا ليلة كاملة بجانب ضريح الحسين . وبما أنهم لا يملكون تقويماً مطبوعاً ، لذا فانهم على الاغلب ليسوا على بينة من أيام احتفالاتهم على وجه الضبط . لذا فان أكثرهم ، يقضي ليلتين في الجامع ، ليطمئن الى عدم فوات الوقت المرهون .

والامر الذى يستوجب تحفظ السائح ، سيما لو كان شيعياً ، هو جماعة حثالة الانكشارية المطرودين من بغداد لسوء سلوكهم . ويطيب لهؤلاء بصفة خاصة ، البحث عن أغنياء الايرانيين ، للتصرف عليهم ، فيعطون لهم فكرة سيئة جداً عن الحكومة العثمانية والسنة على الاطلاق ، الذين لا يحمل الشيعة عنهم فكرة طيبة جداً . فاذا اتصل أجنبي ما معهم - أي مع سوقة الانكشارية فأنهم يبحثون على الفور عن وسيلة ما تمكنهم من التشاجر معه فيتهمونه بحجة تحدثه بسوء عن هذا أو ذاك أو الحكومة وحتى عن الدين ولديهم فى الحال الشهود على ذلك . فان لم يشأ الايراني الذى يجهل التركية والعربية على السواء فى أغلب الاحيان ، ان يقع بيد الحكومة ، فعليه عندئذ أن يدفع الدراهم .

وقد شاء أحد هؤلاء الذين طبقت سيرتهم الآفاق ، وكان حسن الهندام أن يتعرف الي في أحدى المقاهي ، وهو يحسبني تاجراً ارمنياً ، فلما وجد أمامه اوربياً زاد فرحاً ، وامتدح الخدمات الكثيرة المتبادلة بينه وبين الاوربيين فى حلب واستانبول حتى أنه اخبرني بأسماء البعض منهم . وقد أكدلي بأنه سيكون عظيم الامتنان ، لو اتيح له ثانية إسداء خدماته

في مثل هذا المحل الذي اجدنفسي فيه غريباً كلياً ، ذلك المحل الذي يعيرون الاوربيين فيه أهمية قليلة كتصيب النصارى الشرقيين من اهتمامهم .

وكنت قد سمعت مراراً في ايران مثل هذه المداهنات التي لا تعنى شيئاً . الا انني لم اكن معتاداً على مثل هذه السرعة ، في تقديم العروض من الاتراك والعرب المستقيمين . لذلك فقد التزمت على الفور جانب الحذر كثيراً . وعندما علمت بعدها مع أي شخص كنت اتحدث ، صرت أجتنب آنذاك ، الاتصال مع كافة الجماعات هناك .

واود ان اذكر في هذا المضمار أيضاً ، أن الكعبة لدى المسلمين ، ليست وحدها الملجأ الامين للحمام ، بل أن ندرة التعرض اليهم هناك هي نفسها في الجوامع القائمة على ضريحي علي والحسين وفي « جامع DSJAMEA » الجامع الاسامي في الحلة وكذلك في المدن الاخرى .

ويشتد الاقبال هناك بصوره تدعوا الى العجب على الطرات « الترب » والمسابح المصنوعة من الكيل وذلك لسرعة تآكلها بنتيجة لكثرة استعمالها . وهي تصنع في معمل في مشهد الحسين ، يعود لأحدى العوائل منذ عدة سنوات . وتعد هذه العائلة نفسها من نسل السادات ، أو من أحفاد النبي ، وتنتسب الى المذهب الشيعي . غير أنه عليها أن تدفع مقابل هذا الأمتياز - امتياز المعمل - مبلغاً مهماً سنوياً الى باشا بغداد .

وتباع هذه الحاجات المقدسة في بناية صغيرة في جامع الامام . وقد جعلت صاحبي الملا ، يشتري لي قسماً منها ، ورسمت من الطرات التي جلبها بأشكال واحجام مختلفة ، بضع طرات صغيرة في اللوحة ٤٢ . وهي تبدو فيه

منحوتة بأشكال جميلة . أشتريت هناك ايضاً ملفاً من الورق بطول ستة أقدام وثلاث بوصات ويبلغ عرضه ثماني بوصات . وقد رسمت عليه الكعبة والضريح النبوي الشريف ، وأضرحة أعظم الأئمة والأشياء الطريفة التي تعرض الزائر في هذه الأماكن . وجميع هذه الأشكال مرسومة بصورة بدائية وملونة دون إقتصاد في تذهيبها وطلائها بالفضي . إن الحصان (البراق) الذي اتخذ محمد (ص) طريقه الى السماء عليه ، والجمل المحمل بالستار الثمين ، الذي يرسل كل سنة من القاهرة الى مكة ، والاسد (ويراد تمثيل علي به) ، وجواد علي الملون الشهير (دلدل) ، وعبده الصادق (عنبر) ، وسيفه الشهير (ذو الفقار) ، والختم الذي كان على ظهر النبي محمد (ص) ، كانوا جميعاً مرسومين على هذه الورقة . ولو أنني حفرت الرسم بكامله على النحاس لغرض الطبع لأصبح قرائي قليلي الشكر لي . ولكن نظراً لتعدد البحوث عن السيف « ذو الفقار » في تاريخ العرب فقد رسمته في لوحة ف . وله شكل خاص وكبر خارق للعادة . ذلك ن شخصية شهيرة للغاية ، وقوية كعلي ، كان لا بد لها أن تتملك سيفاً خاصاً كبره خارق للعادة . فلو قارنا السيف في الرسم المذكور مع الأشكال الاخرى في الرسم نفسه . لتبين لنا أن طوله يقارب (٦ ونصف) قدماً . وسيجد الأوربيون رسمه غريباً . ولو فرضنا أن من المحتمل ان علياً كان يملك سيفاً ذا حدين ، وأن المسلمين الحاليين ، كما هو معلوم ، يعرفون السيف الاعتيادي فقط ، لذلك فلا يعتب كثيراً على الرسامين الشرقيين حين يرسمون ذا الفقار بنصلين . ألا يرسم الرسامون الأوربيون في أكثر الاوقات رسوماً غريبة للاشياء الشرقية التي لم يروها ؟ وفي نفس هذه اللوحة يشاهد

أيضاً تحت الحرف (غ)، شكل لختم النبي الموشوم على ظهر محمد (ص)، وهو يبدو في الصورة منقوشاً بالكتابة العربية. إلا ان أحد العلماء السنة أراد أن يؤكد لي، أن العلماء حتى الآن، لم يتفقوا على الأوصاف الأصليـة لهذا الختم.

ان (البراق) مرسوم على الورق المذكور على شاكلة جواد مسروج وله رأس امرأة ذات شعر طويل، وله جناحان صغيران وذنب عريض متجه الى الأعلى.

عدت الى الحلة من مشهد الحسين أو كربلاء برفقة ما يقارب المائتين من الزوار. وقد سافر الآن إلى هناك كثير من الناس ممن لم يحضروا في مشهد علي قبل البدر، وذلك لأداء زياراتهم، بينما أتخذ الآخرون الطريق المؤدي مباشرة من كربلاء الى بغداد. ويقدر الطريق من مشهد الحسين الى مشهد علي بمسافة سبع ساعات أو خمسة أميال المانية. وتبدو أولا، على بعد ميل واحد تقريباً من المدينة المذكورة، بساتين النخيل غامرة المكان، ويكون الطريق بعدها رملياً، ولا يصادف المرء أي بناء سوى خان (KNESA) (١) وهو كروان سراي يقع في محل لا يبعد عن كفيل (٢).

ولا يكون هذا الطريق في العادة، اميناً بالنسبة للمسافرين المنفردين. وخلال إقامتي هناك، عاد الى مشهد الحسين ذات مرة اناس قد نهبهم العرب. وفي اليوم الثاني وصل أناس قد نهبتهم خيالة الباشا الذين يفرض

---

(١) ربما يقصد خان النص او النصف

(٢) الكفل

فيهم حماية الأمن في الطريق . فكان على هؤلاء المسافرين ان يسلموا كل ماله قيمة مما بحوزتهم . ولم تستثن بنادقهم أيضاً . وقد أطلق سراحهم بعد ذلك .

ويقدر الطريق من كربلاء إلى بغداد ، بمسافة ستة عشر ساعة كما يلي :

خمس ساعات الى « المسيب » وهي قرية على الفرات ، لها جسر شيد على العوامات .

أربع ساعات الى الـ « كروان سراى » المسمى (BIR UNUS) (١) ومنها الى بغداد ، عن طريق الحلة ، في سبع ساعات .

المصحح

(١) لعله بئر النص (بئر النصف) .

ملاحظات عن الحلة

تقع مدينة الحلة على خط العرض « ٣٠َ ، ٢٨َ ، ٣٢ْ » على الساحل الغربي للفرات . وهي مدينة على جانب من السعة حتى في الوقت الحاضر ، إلا أنها تمج ببساتين النخيل . والقليل من البيوت فقط ، ماهو مشيد بالطابوق المفخور ، في حين أن البيوت الأخرى ، استعمل في بنائها الطابوق المجفف بالشمس وفي داخل المدينة جامع ذو منارة واحدة فقط ، بينما تشاهد في خارج المدينة جوامع أخرى متعددة ، منها الما هي بمشهد الشمس ، الشهير لدى الشيعة . وربما كان ذلك هو السبب في المحافظة عليه وحسب رواياتهم ، فان الشمس ذات مرة ، طلعت بعد ميعادها بساعتين مجاملة للامام علي الذي تأخر عن موعد صلاة الصبح ذلك اليوم وقد شيد بعدها مشهد الشمس أو « جامع الشمس » في نفس الموضع الذي أدى الأمام علي صلاته فيه آنذاك .

كان حاكم (متصرف) هذه المدينة يتبع أوامر باشا بغداد . ولهذا الاخير موظف للكمرك يبقى على الدوام ، وله بدوره عدد من الموظفين . ذلك أن تجار بغداد والبصرة بصفة عامة ، يفضلون إرسال بضائعهم من مدينة إلى أخرى عن هذا الطريق ، بدلا عن نقلها على دجلة .

ويظهر أن منصب القاضي فى الحلة متوارث . إذ أن الشخص الذي كان يشغل ذلك المنصب خلال إقامتي هناك ، كان فيه منذ سنوات طويلة ، كما أن والده أيضاً كان قاضياً لهذه المدينة .

يقرب عرض الفرات في هذه المدينة من أربعمئة قدم ، وعليه جسر ردىء يقوم على اثنين وثلاثين عوامة ربطت بعضها بالسلاسل . كان عرض النهر في هذه الآونة على أوطأ مستوى له ، ولكنه لن يلبث أن يأخذ في الأرتفاع في أواخر كانون الأول أو بداية كانون الثاني .

ومما لاريب فيه ، أن بابل تقع جوار الحلة وذلك ليس لأن الأهلين مازالوا الى يومنا الحاضر يطلقون على هذه المنطقة اسم «أرض بابل» فحسب ، بل ان هناك اطلال مدينة قديمة لايمكن أن تكون إلا بابل . فان سلمنا بقول الآخيرين ، يتبين لنا أن الحلة أيضاً ، تقع ضمن أسوار بابل القديمة . غير أن المرء يجب أن لا يتوقع عند ذكر الأثار العتيقة في بابل القديمة ، أنها بعظمة الآثار الرائعة التي تشاهد في إيران ومصر .

فالرخام الضخم الموجود في برسيبوليس ، كان بالضبط قرب المدينة ، بل إنه كان على التل الذى شيد عليه البلاط الشهير . والاحجار الكلسية التي شيدت بها الاهرامات الكبيرة قرب القاهرة ، قطعت في نفس الموضع . وبالاضافة إلى ذلك تصادف التلال المكونه من الاحجار الكلسية في جميع الجهات التي تقع في الجنوب من ذلك الموضع ، في أماكن لاتبعد كثيراً عن النيل ، بل أنها تقع جواره تماماً . هذا إلى أن تلال الجرانيت تصادف فى القسم الجنوبى من مصر قرب النهر تماماً ، بينما لا تصادف مثل هذه الظواهر في دجلة والفرات من الخليج الفارسي حتى الحلة وبغداد ، بل الى أبعد من ذلك شمالا ، حيث أن الاراضي لا تعدو عن كونها مستنقعات فحسب . فلو أن البابليين شاءوا تشييد أبنيتهم بالاحجار المقطوعة ، لوجب عليهم آنذاك ، جلب هذه الأحجار من أماكن بعيده جداً ، ولكلفهم هذا الأمر تكاليف باهظة للغاية . لذا فان

أنفر أبنيتهم قد شيدت بطوابيق مربعة الشكل ذات قدم واحد ، يقرب سمكها من سمك الطوابيق المستعملة لدينا في الوقت الحاضر . وقد نفروا هذه الطوابيق على نفس النمط الذي نفر به آجود ما رأيت من الطوابيق . ولو أنهم ألصقوا هذه الاحجار بالكلس ، لكان من الممكن أن نصادف من بقايا هذه الابنية ، اكثر مما نصادفه الآن . غير أنهم بنوا هذه الاحجار بمادة رديئة لا تتماسك على نحو قوي جداً ، لذلك نقلت أحجار ابنيهم القديمة تدريجياً ، وشيدت بها أبنية جديدة في المدن والقرى المجاورة الواقعة على الفرات . وحتى الـ (كروان سراي) الكبير والبديع الذي نزلت به في الحلة شيد منذ بضعة سنوات بتلك الاحجار .

إن القلعة والحدائق المعلقة الشهيرة الواقعة قرب الفرات تماماً ، كما يذكر سترابو وسائر الكتاب اليونانيين الآخرين في أخبارهم ، لم يعد يشاهد منها ، كما أعتقد ، سوى بقية في موضع يبعد بثلاثة أرباع الميل الالماني عن الحلة ، باتجاه الشمال فالشمال الغربي وهي بالضبط على مقربة من النهر ، على الضفة الشرقية منه . وجميعها عبارة عن تلال كبيرة متآكلة كثيراً ، وقد نقلت جدرانها البارزة فوق الارض من هناك منذ زمن بعيد . إلا أن جدرانها الأساسية مازالت باقية ، وقد شهدت بنفسي الأشخاص الذين يستخرجون الاحجار منها لنقلها الى الحلة . وفي الوقت الذي لا يشاهد في كافة المنطقة الممتدة من الخليج الفارسي الى كربلاء اي شجرة تقريباً ، ماعدا اشجار النخيل والفواكه الاخرى ، تصادف هنا وهناك ، بين تلال الخرائب هذه ، شجرة أخرى يبدو انها متقدمة في العمر . وعلى ساحـــلي الفرات من تلك المنطقة كلها ، نشاهد تلول صغيرة متآكلة ممتلئة بشظايا احجار الجدران .

وفي الجنوب الغربي ، على مسافة ميل وربع من الحلة ، وعلى الساحل الغربي للفرات أيضاً ، تبدو بقايا اخرى لبابل . وهنالك تل جميعه من احجار الجدران الجميلة المذكورة . وفوقه برج قائم يبدو هو الآخر ممتلأ باكمله من الداخل باحجار الجدران المفخورة ، غير ان احجاره الخارجية ، ـ ومن يدري كم كان سمكها ـ فقدت بمرور الزمن . وهنالك في ذاك الجدار السميك ، أو بتعبير اصح ، كومة لاحجار الكبيرة ، ثغرات صغـيرة هنا وهناك تنفذ الى الداخل تماماً ، من المحتمل أنها احدثت لتنظيم التهوية بصورة طليقة ، وللحيلولة دون تكاثف الرطوبة في الداخل ، مما يؤدي أخيراً الى الاضرار بالمبنى .

لقد كان من الواجب ان يكون المنظر الذي يطل عليه البرج ، رائعاً في العهد الذي ازدهرت بابل فيه ، وكانت اطرافها جميعاً عامرة ، إذ يشاهد من سطح ذلك البرج مشهد علي بجامعه الذي يبعد بمسافة لاتقل عن ثماني ساعات وقد شهدت ذلك البرج أو كومة الأحجار في سفرتي الاولى الى الحلة وحسبته برجاً قديماً للحراسة .

ويطلق رفاقي عليه اسم بئر نمرود (١) ، ويروون أن ملكاً يحمل ذلك الأسم ، شيد هناك بلاطاً كبيراً فخماً . فاذا حدث البرق ، شرع يرمي السهام الى السماء ، وكأنه يريد محاربة الله . فيفخر بأنه أصاب الله بجرح ، إذ يبرز سهاماً سقطت ثانية من السماء ، ملوثة بالدم وإخيراً عاقبه الله بالحشرات ، التي أخذت تلاحقه بحيث لم يجد خلاصاً منها حتى في بلاطه الفخم ، حتى

---

(١) لعله هو « برس » أو برج بابل .

انتهى الأمر أن قتلته تلك الحيوانات الصغيرة . . . الخ .

لم أجد فرصة في الحلة للتعرف على علماء المسلمين عدا القاضي الذي لم يكن ليعرف شيئاً عن « بئر » وبلاطها ، غير الخرافة المذكورة . إلا أنني بعد مطالعتي ثانية لما سجله هيرودوت في كتابه الأول في الفصل المائة والسبعين عن معبد بلوس وبرجه الثابت ، وجدت من المحتمل جداً أنني قد عثرت هنالك من جديد على بقيته - اي بقية البرج - لذا أود أن يفحصه أحد من سيعقبني فحصاً دقيقاً ، ويصفه بعدها . وقد سافرت الى هناك لوحدي بصحبة دليل الطريق فحسب . ولم أكد أفحص تلك الكوم من الاحجار الا قليلا ، حتى رأيت بضعة من العرب الخيالة ، متجهين نحوي . فوجدت أن من الأسلم الرجوع الى المدينة ثانية . فلو أنني كنت أدري آنذاك أنني بالقرب من برج بابل ،لاصبحت أكثر جرأة ولكنني لم أجد من المعقول وقتها أن أتعرض للنهب بسبب تلك الكوم القليلة من الاحجار ، أو ان أخرج بصببها للسفر ثانية . ويشاهد بالقرب من هذا البرج قبتين صغيرتين أو بيتين للصلاة ، مشيدين منذ ما يقارب الاربعمائة سنة ، وقد تخرب قسم منهما ، وعليهما كتابات صغيرة بالطين المفخور ، تستلفت النظر .

وكما هو معلوم فان البابليين كانوا قد أودعوا مشاهداتهم في علم الفلك ، لمن سيخلفهم ، على أحجار مفخورة . وبذلك شاء العلماء الاوربيون ، أن يستنتجوا أن علمهم - أي علم البابليين - ، كان ضئيلا أو معدوماً . الا أن مجرد اعتمادهم على هذا الأسلوب السالف الذكر ، يجعل لي رأياً آخر في هذا

الصدد . إذ أن نفس ذلك الطراز من الكتابات بالحجارة المفخورة ، متوفر في بغداد وغيرها من المدن في تلك المنطقة التي تكون فيها الاحجار المقطوعة نادرة وباهظة ، كما هو متوفر في ايران التي يتيسر فيها الرخام الجميل بتكاليف قليلة جداً : ولهذا لا يمكننا من جهة الأدعاء بأن العرب والايرانيين لم يملكوا مواداً أخرى للكتابة ، كما لا يمكننا من جهة أخرى ان ندعي انهم كانوا جهلاء في الفنون ، بل على العكس من ذلك ، يمكننا أن نستخلص ان البابليين كانوا في منتهى الرقي في صنعة الكتابة والفنون . ذلك أن قوماً يستطيعون قطع الحروف وإعطائها الشكل المناسب ، ويفخرونها بشكل جيد ، فتلتصق الواحدة بالأخرى « كما يملأ المرتب في عصرنا هذا هيكل الطبع » ، حيث يمكن قراءتها بعد مضي ستمائة أو سبعمائة سنة « كما اطلعت بنفسي على كتابات راسخة في القدم كهذه » ، لا يمكن أن يعتبروا على أية حال ، جهلاء لفن الكتابة .

وحيث أن البابليين أرادوا رسم الأخبار المتعلقة بالمعلومات الفلكية المهمة ، بنفس هذه الكيفية ، فان ذلك يدل بلا ريب ، على أن علمهم كان اكثر مما عرف عنه بواسطة كتاباتهم الاخرى ، التي تعطي بعض الاخبار لمن جاؤوا بعدهم ، عن مشيد أحد الابنية .

ومن المحتمل أن المواد الاعتيادية للكتابة ، التي استعملها البابليون ، كانت رديئة وغير صالحة للحفظ . ويظهر أن علمائهم في الفلك ، قد فطنوا بنتيجة التجارب الطويلة ، الى أن مشاهداتهم المهمة ، قد ضاعت أو حرفت بنتيجة تكرر استنساخها ، لذا فان إحاطتهم اياها بالجدران ، كان عملا صائباً . ولو عرضت الكتابات هذه للهواء الطلق ، لوجب تجديدها كل خمسمائة أو ستمائة سنة تقريباً ، بينما لا تجدد الكتابات المعتنى بها الى حد ما داخل البناية ،

الا بعد مضي ألف عام او ما يزيد .

شيد أحد المسلمين قبة صغيرة في هذه المنطقة اجلالا للنبي ألياس . ويعتقد العامة ، أن النبي المذكور مدفون هناك . غير ان الاس ليس مؤكداً ، وكذلك روايتهم عن سكنى أيوب في منبع يقع جنوبي الحلة ، على مسافة نصف الساعة منها . ولا يزور اليهود القبة المشيدة على القبر المعزى للنبي الياس ، ولا القبة المشيدة على المنبع للنبي أيوب .

السفر من الحلة الى بغداد

تحركت من الحلة في ٥ كانون الثاني سنة ١٧٦٦ ويمتد الطريق المؤدي منها الى بغداد ، مستقيما تقريباً باتجاه الشمال على النحو الآتي :- اربع ساعات الى المحاويل ،ومنها الى الاسكندرية في اربع ساعات، ومنها الى *BIRUNUS* بثلاث ساعات ، ومنها الى خان اسعد بثلاث ساعات ، ومن خان اسعد الى بغداد باربع ساعات . ويوجد كروان سراي كبير في كل هذه المحلات المذكورة وقد شيد اثنين منها منذ بضع سنين ، تاجرغني ، كما شيد بالاضافة اليها جسراً جميلا قرب بغداد . ويعطى في اوربا وسام الشرف لشخص كهذا، تقديراً لخدماته للمصلحة العامة . الا ان سليمان باشا ، ارغمه على ان يقرضه مبلغاً كبيراً . ومن الطبيعي ان ذلك المبلغ ، لم يعاد في اي وقت من الاوقات.

ويوجد بالقرب من كل « كروان سراي» من الأربعة المذكورة ، كواخ قليلة العدد فحسب. وفي الشرق من *MHAVIE* (لعلها المحاويل) قرية بنفس الاسم وتوجد بين *BIRUNUS* وخان بني اسعد ، قرية *MAHAMUDI* المحمودية التي بنتها قبل بضعة سنوات فقط عادلة خاتون زوجة سليمان باشا . اما الاراضي الباقية ، فجميعها قاحلة ، بالرغم من أن الاراضي في كافة النواحي خصبة جداً . ولو لم تكن البلاد تفتقر الى السكان ،وهؤلاء بدورهم الى الثروة، لكان من الممكن إرواءها من مياه الفرات ، بجهد ونفقات قليلة .

وكلا النهرين متقاربان هناك بحيث ان المسافة بينهما - على ما أكدوا

لي - تبلغ ست ساعات فقط في محل يبعد بضعة اميال باتجاه الشمال من بغداد.
وفي وسع السائح ان يقطع المسافة بين الحلة وبغداد ، والبالغة ١٣ او ١٤
ميلا، بكل سهولة خلال يومين في الصيف وخلال ثلاثة أيام في الشتاء . وحيث
ان المطر كان غزيراً ، كما انني لم اكن على عجلة من امري ، لذا فقد احتجت
اربعة ايام لذلك ولم يصاحبني طيلة هذه الفترة رفقاء سفر آخرون ، سوى
بعض الاشخاص الذين يسوقون البغال وينقلون بضائع التجار الى بغداد .
وقد كانوا يتفوهون بكلمات سباب بذيئة متعددة ، بحيث لم أسمع مثلها من
المسلمين في أي مــكان آخر ، خلال رحلتي جميعها . ان من عادات بقية
الاعراب تحاشي ذكر اسماء نسائهم وبناتهم لان هؤلاء السوقة يريدون في
كل لحظة أن ينالوا من شرفهن، فيسمون امهات وجدات غيرهم ، حتى الجيل
الخامس والسادس ، بابشع النعوت ، يفعلون ذلك كله على سبيل المزاح .
واصحاب البغال (قاطرجي *KATERDSJI*) هؤلاء من الحلة او بابل
القديمة . غير انى لم أجد بقية أهل الحلة ، يختلفون عن سائر المسلمين
الآخرين : وعلى العموم لا يسع المرء ان يحكم على اخلاق مدينة بكاملها على
ضوء أخلاق أصحاب البغال ، الذين هم من اوطأ طبقة.

الفهرست

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٣	١٠	تبحثه	تبحث
٥	١٥	كثيرآ	كثيراً
٧	٤	بساتين	يوساتين
٩	٦	فيما بين	فيما يلي
١١	٩	مكنة	مكانته
١٢	١٥	تدريجاً	تدريجياً
١٤	٥	للسطان	للسلطان
١٤	٨	الفضاة	القضاة
١٦	٤	الواتف	الواقف
١٦	الهامش	اورقا	اورتا
٢٣	١٥	فهل	قبل
٢٧	٩	لحيطة	المحيطة
٣٢	١١	اصابيع	اصابع
٣٢	الهامش	اصابيع	اصابع
٣٤	٢	المنتصف	النصف

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٤٠	٦	كمتاجر	كتاجر
٤٣	٦	الظواه	الظواهر
٤٤	٩	اعرب	اعراب
٥٤	٢	في	من
٥٨	الهامش	اوتاع	اوتاغ
٦١	الهامش	نهبتهم	نهيتهم
٦١	الهامش	يكادوا	يكدوا
٦٥	١٠	يقع	تقع
٦٧	١٠	نحته	نحته
٦٨	١٦	مرزية	مزرية
٧١	٩	فتيين	فيتيين
٨٠	٩	بشيء	شيء
٨٠	١١	٨ر٢	٨ر٥
٨٢	٢	بالمياه	بالميناه
٨٥	٨	السووة	السورة
٨٥	١٨	الحليفة	الخليفة
٨٨	١٤	قير	قبر
٨٩	١٨	يخفي	يخفي

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
٩٣	٣	ولا	وإن لا
٩٢	٦	حزب	جرت
٩٤	٢	لعائلته	لعائلته
٩٤	٧	مائة	مائه
٩٥	٨	للتصرف	للتعرف
٩٦	١٢	تدعوا	تدعو
٩٦	١٣	لـكثرة	كثرة

وهناك أخطاء مطبعية إخرى يسهل تداركها.

